الأعلام الثلاثة

أبو يحيى سليمان بن ماطوس الشرُوَسي، وأبو هارون موسى بن يونس الجلالي، وأبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي: ثلاثة أعلام يتسابقون إلى المكارم فلا يتفاضلون، ويتنافسون على بناء الأجيال لإعداد الرجال فلا يتأخر أحدهم عن أخويه. ترنو الأبصار إلى الواحد منهم فلا تنحدر عنه، حاسبة أنه الغاية إلى لا مرمى بعدها لكمال الشخصية وصفات البطولة، فإذا علقت بزميله، رأت منه ما ينسيها مظاهر العبقرية الأولى ...

جدوا وراء الدراسة حتى بلغوا الشأو الذي تقصر دونه مدارك الكثير، ولا يبلغه إلا النزر اليسير، ممن وهبتهم عناية الله مواهب تكاد تكون خارقة للعادة، ثم ركنوا للعمل.. العمل بما علموا ... فبلغوا أيضاً الغاية التي لا يبلغها إلا النادر القليل من الأبطال الصابرين، الذين يهبون مايملكون من قوى مادية ومعنوية لأمهم.

` ابن ماطوس 44 وثق المشايخ بأبي يحيى بن ماطوس، فاسندوا إليه حكم الجبل، وقبل العالم الكبير هذه المهمة، كما قبلها أسلافه من قبل، فكان من خير من أسند إليه حكم، فتولاه عن دراية وعلم، وطبَّقه بحذق وفهم، وحل المشاكل المتشابكة

بحق وعدل، ولم يشغل ابن ماطوس بهذا العبء الثقيل عن الرسالة التى خلق من أجلها، رسالة التعليم. فكانت مدرسة ابن ماطوس من أعظم المدارس التى نشرت العلم في جميع الربوع، وورد إليها الطلاب من كل مكان. لم يكن ابن ماطوس مجرد مدرس يلقي النظريات العلمية ويشرحها للطلاب حتى تصل إلى أذهانهم، وإنما كان مع ذلك مربيا يحسن التربية، وقدوة صالحة للأقتداء، فكانت دروسه مشبعة بروح الإسلام، وكان خلقه الكريم بين الطلاب داعيا لتهذيب النفس، وكانت سيرته القويمة مضرب الأمثال. وإلى هذه الشخصية القوية في أخلاقها ودينها وكفاحها،كانت غزارة العلم من أعظم الأسباب في تكوين هذه الشخصية، فلم يخل كتاب من كتب الإباضية عن أقوال ابن ماطوس، ولم يبق بلد من بلدانهم لم تدخله فتوى ابن ماطوس. قال أبو يحيى الفرسطائي: اجتمعت ببعض العلماء بناحية " زويله " فقال: إن فتوى ابن ماطوس كلها حسنة، إلا أنه يرى أَنْ لا الشفعة ليتيم، ولا لغائب. قال أبو يحيى: فلما قدمت أتيت ابن ماطوس فأخبرته، فقال: قل له: ذلك تعطيل الحقوق.

إن هذه القضية البسيطة توضح انتشار فتوى هذا العالم العظيم، ومبلغ تقدير رجال العلم له. كان الطلاب يلتحقون بالمدارس المنتشرة في المغرب الإسلامي، ثم يعودون فيصححون ما درسوه على هذا العالم العظيم.

درس الطالبان النجيبان: أبو صالح وأبو موسى في بعض المدارس بالجنوب التونسي، ولما أتما دراستهما قررا الرجوع إلى جبل نفوسة، ليعرضا ما درساه على ابن ماطوس، فالتقيا بالعلامة

بكر بن أبي بكر الفرساطائي، وكان في دور التعليم حينئذ، فرافقهم، وفي طريقهم وجهت إليهم عدة أسئلة، وكان جواب بكر الخلاف ما درس الشيخان.

وعندما وصلا إلى العالم الكبير ابن ماطوس ذكرا له قصتهما، والخلاف بين فتواهما وفتوى ابن أبي بكر، فقال الشيخ لهما: الفرسطائي عالم ...

أنها شهادة ممن يحق له أن يعطي الإجازات الدراسية، فيفخر بها الطلاب وموضوع الأسئلة موضوع فقهي، وجواب الشيخين هو الجواب الآلي الذي تجده عند المختصرات الفقهية، أما جواب ابن أبي بكر فهو جواب العالم الذكي الذي يتغلغل بفهمه العميق إلى أسرار الشريعة، ويغوص إلى الحقائق التى يكتشفها العقل المستنير في أحكام الإسلام، ويكفي أن أذكر لك إحدى هذه المسائل التى عرضت لأولئك الطلاب، لتعرف مقدار الفرق بين المتشبث بظواهر النصوص لعلماء الفقه، والمتفهم لسر الحكم الشرعي. سألهم سائل فقال: رجل تيمم لعذر شرعي ويده نجسة، فما الحكم في اليد والتراب المستعمل للتيمم ؟. أجاب الشيخان أن اليد طاهرة والتراب نجس. ولكن ابن أبي بكر قال: إن اليد والتراب طاهران. فقيل له:أين ذهب النجس ؟ ! فقال: ذهب بين الضربات ! ولك أيها القارئ الكريم أن تتأمل هذه المسألة على أحكام الشريعة السمحة، التى وضعت التيمم في مقام الوضوء أو الأغتسال، لترفع الحدث، حتى لا تكلف المسلم شططاً، وتحمله ما لا يستطيع، لك أن تتأمل ذلك ثم تقف في صف من شئت من هؤلاء الطلاب، أما أنا فقد اخترت موقفي

ووقفت إلى جانب ابن أبي بكر، ما لم تكن النجاسة التى في اليد ذات عين باقية الأثر في التراب الذي استعمل في التيمم ...

كان رجل من أهل بلده غائباً، ورجع في ليلة من الليالي لعمل ضروري سريع، وأخبر زوجته أنه سيعود إلى عمله في الصباح الباكر، وفكرت الزوجة الصالحة فيما يترتب على هذا المجيء المفاجيء الذي حضر فيه الزوج، صاحب الحقوق المعينة، دون أن يراه أحد أو يسمع به ؛ فكرت وهي تنظر إلى المستقبل القريب ... فصنعت طعاماً لزوجها، ثم بعثت إلى ابن ماطوس تدعوه أن يرافق زوجها في العشاء، وحضر العالم الحاكم، وأكل الطعام مع الزوج الذي غادر البلد مع غبش الفجر، وقدر لها أن تحمل من تلك الليلة، وأن يقع ما توقعته وتحدث الناس أن فلانة حامل، مع علمهم بأن زوجها غائب، وبلغتها قالة السوء فآلمتها، فإذا جنها الليل، ورأى الناس إلى مضاجعهم، تستقبل هي عالم الأسرار والخفايا ثم تقول: ياملائكة السحر ذكروا ابن ماطوس، وبلغ مسامع الشيخ ما يتهامس به الناس عن المرأة الفاضلة الذكية الحازمة، فأمر بضرب الطبل، وعندما اجتمع الناس أخبرهم بما عرف، حتى لا يقذفوا امرأة مؤمنة غافلة بما حرصت أشد الحرص أن تبعده عن نفسها.

ولعله يكفي أن نختم حديثنا عنه بهذه الشهادة القيمة من عالم لا يلقي الكلام جزافاً قال البغطوري: " إن ابن ماطوس قادة بعد أبي القاسم وبورك في علمه، فبلغت فتواه شرقاً ومغرباً، وهو أحد فروع مانو " راجع سير الشماخي 45 ص 276.

` أبو هارون موسى بن يونس الجلالي: -

درس على أبي القاسم البقطورى أحد الشيخين اللذين بقيا بعد معركة مانو، وبرع أبو هارون في الأصول والمنطق والرياضيات ؛ أما علم الفقه فقد كان يسميه هو وزملاؤه من الطلبة الأذكياء " علم العجائز ".

اهتم هذا العلامة الكبير بمثل ما اهتم به صديقه ابن ماطوس، من نشر العلم، ورث الخلق الحميد، وبث روح الإسلام الصافية في نفوس الطلاب والمجتمع. وأسس مدرسته العظيمة التى تعتبر مثالية في ذلك الحين، وندر من لم يستفد من الأثر الكبير في حياة الأمة، مع شدة إقبال الناس على هذه المدرسة، كان ابن ماطوس يرى أن الناس مقصرون في الاغتراف من هذا المنهل العذب، فكان يقول: " لو علم الناس ما ينفعهم لازدحموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة في البصرة " جمع أبوهرون بين غزارة العلم، ووفرة المال، فقد كان دائم الكفاح !.. الكفاح المتواصل الذي لا يعرف الراحة أو الاستجمام، فلن تجد أبا هارون متى جئته إلا في إحدى حالتين: نشر العلم، وبث المعرفة، وتثقيف العقول. أو جمع المال من طرقه المباحة التى يعرفها حق المعرفة، وفي رأس السنة المالية لميزانيته يقسم موارده إلى ثلاثة أقسام:

يخصص القسم الأول للنفقة على نفسه وعائلته ومن تلزمه مصاريفه، ويخصص القسم الثاني للضيوف وأبناء السبيل، والحقوق التى تجب عليه أو على بلده من هذه الناحية.

ويخصص القسم الثالث للإنفاق على الأقسام الداخلية في مدرسته العامرة، التي يؤمها عدد غير قليل من الطلاب البعداء، فتتكفل المدرسة بإيوائهم والإنفاق عليهم، وكان إلى هذه المكانة السامقة من العلم والمال ؛ شديد التواضع، لين الخلق، سهل المعاشرة، يوقر أصحاب الفضل والعلم، ويستشيرهم حتى فيما يعرفه حق المعرفة.

زاره أبو محمد عبدالله بن الخير " بالجزيرة " وبينما كان الشيخان يتحدثان إذا ارتفعت صيحة عن غارة موجهة إلى القرية فوثب أبو هارون إلى سلاحه ثم اندفع إلى الميدان.. ثم تذكر أن في ضيافته العلامة أبا محمد عبدالله بن الخير، الحاكم والقاضي على الجبل، وأنه يجدر به أن يلتمس منه النصح والإرشاد قبل أن يبدأ العمل، وإن كانت السبيل واضحة أمامه وحكم الله جليا في مثل هذه القضية. ورجع إلى الضيف الكبير يستشيره ويستنصحه فيما يجب أن يفعلوا إن أدركوا العدو. فقال القاضي العادل، والحاكم العالم: " إن قتلوا الأنفس وحازوا الأموال فقاتلوهم، وإن أخذوا الأموال خاصة فاقصدوا أموالكم، فإن حالوا بينكم وبينها فقاتلوهم " 46

تلك السيرة الرائعة التى تتبع تعاليم الإسلام في تنظيم الهجوم والدفاع، اتباعا لأمر الله، لايحيد به غضب، ولا يستفزهم كيد، ولا يوصلهم إلى الطغيان عدوان.

إن العلماء الأعلام الذين درسوا على أبي هارون، وتخرجوا من مدرسته، أكثر من أن يحصيهم العد، أما آراؤه وفتاواه وأقواله،

فلا يخلو منها كتاب من كتب الفقه والأصول والكلام، وكثيراً مايكون رأيه أرجح الآراء، ومعتمد المذهب ...

` أبو الربيع سليمان بن زرقون 47 النفوسي من نفوسة " تاديوت"، درس في " سجلماسه " على العلامة ابن الجمع 48. وقد كانت " سجلماسه" في ذلك الحين، من المراكز العلمية التى يؤمها الطلاب من جميع النواحي، لاستكمال الدراسة، وعندما توفى الشيخ العالم، أوصى بثروته العلمية إلى تلميذه النجيب الذي خدمه بإخلاص زمنا غير قصير.

وأصبح هذا الطالب بعد أن استكمل دراسته شيخاً عملاقا تنحني أمامه الرقاب، وتذوب بين يديه شبه المشاغبين، ولما رجع من سجلماسة إلى الجنوب التونسي وجد أن النكار قد نشروا بدعهم في كثير من تلك البلاد. وأصبح لهم أتباع ومريدون، ولم يزل يتنقل من بلد إلى بلد، ومن مجمع إلى مجمع، حتى قضى على تلك البدع التى كادت تفتك بدين الناس، وسكت أولئك المشاغبون، فلم تعد تنطلق آراؤهم ا لمنحرفة لتزيغ عقول البسطاء من الناس عن دين الله.

كان قوي الحجة، فصيح اللسان، غزير المادة، شديداً في دين الله..

رأى تبرجا من نساء " قصطالية " فقال: ما أكثر إماء أهل هذا البلد، فحملهن على غير الحرائر. وقد كان في هذه الكلمة من التوبيخ والزجر ما يدفع الضمائر الحية إلى العمل، كان مسافراً في شتاء شديد البرد، ومعه شيخان ورعان، فمروا بغدير وقت

الظهـر، فاختلفوا في وجـوب الوضوء، فتيمم ابـن زرقون، وتوضأ أحد الشـيخين الورعين، فأصيب من شـدة البرد، فقال ابن زرقون لصاحبـه: لم تجز لنفسـك أن تتيمم لصلاة واحـدة، فتيمم الآن لصلـوات عـدة. إن فهم روح الشـريعة والمقاصد السـامية من تكاليفها هـي حقيقة الورع، وإن الجمود علـى ظواهر النصوص قد يؤدي إلى عكس المطلوب. فقد فر صاحب ابن زرقون من تيمم واحد، ولكنه اضطر -لقصور فهمه حكمة الطهارة في الإسلام - إلى التيمم لعدد من الصلوات.

كان ابن زرقـون في صغره: ذكيا، ظريفاً، نجيبـاً، وكثيراً ما كان أسـتاذه " ابن الجمع " يمازحه بتوريات عامضة، فينتبه لها الطالب الذكـي، ويجيب على البديهة. قال له يومـا: إنك ولد في الطين، يوهمـه أنه يصفـه بالفطنة، فقـال الطالب النجيـب: إنه غير منزلق، ليبرهن لأستاذه أنه فهم التورية.

وقـام يوما من الأيام بعمل يسـتحق عليه الشـكر، فقال له الشيخ: الزيت خير، يوهمه أنه قال له: جزيت خيراً، ولكن الطالب النجيـب فهـم أيضـاً هـذه الدعابة من أسـتاذه وقـال له على البديهـة: يصلح للخبز، وهكذا كان الفتى الظريف مع أسـتاذه الكبيـر، يتلقى عنه العلم، ويتلقف منـه الدعابة، ويقتبس منه الهداية والرشد.

أبو عمرو
ميمون بن محمد الشَّرْوسِي 27

عالم اشـتهر بكفاح الرذيلة حتى بلغت أخباره أقاصي البلاد. سمع يوماً إن جماعة يشربون الخمر " بالفحص " وبين هذا المكان " وشـروس " مركـز حكمـه وإقامته مـا لايقل عن سـتة أميال، فذهب إليهم، وأراق شـرابهم، وكسر آنيتهم، وأقام الحد على من يستحقه منهم.

جمع إلى الورع الشـديد، العلم الغزيـر، وإلى رقة القلب، قوة الإرادة ومتانـة الدين، ولهذه الصفـات وغيرها من الصفات التى يتحلـى بها المؤمنون المخلصون، وثق فيه الناس فولوه أمرهم، كان شـديد الخوف من حقوق الناس، فكان يرتعد كما ترتعد السعفة فـي مهـب الريـح إذا وضعت بين يديـه قضية للحكـم، وكانت دموعـه تنحدر دون أن يملك حبسـها، إذا قال لـه الخصم أعطني حقي، خوفاً أن يكون مال عن الحق، ولم يعرف الصواب، وحسـبك ديناً وعدلا لرجل يلى الحكم، أن تكون هذه أخلاقه وسيرته ...

أخذ جانياً فحبسـه في بيته موثقاً ليستشير في أمره بعض المشـائخ، وينزلوا به العقاب الذي يقرره قانون الله، وفي الليل قام أبـو عمرو إلـى الصلاة، فوجد الجاني فرصة للإفـلات، ففك قيوده

ثم هجم على أبي عمرو بسكين كانت في يده وجرحه، ولكن أبا عمرو – وكان شجاعا وقوياً وشديداً في أمر الله - رجع إلى الجاني وقبض عليه من جديد، ونزع منه الموسى، ثم أوثقه وعاد إلى صلاته، ولم يرد أن ينزل به أية عقوبة حتى حضر المشائخ، خوفاً يؤثر عليه الغضب، أو أن يكون قد انتصر لنفسه، وحضر المشائخ، ورأوا فيه رأيهم الذي لا يتجاوز الحق والعدل.

ذهب إلى جادو لبعض الشؤون، وعندما كان في الطريق وهو راجع إلى شروس، سمع إن جيشاً عظيما يريد الغارة على الجبل، فتوقف في الطريق يفكر في الأمر، إنه لم يستعد للحرب والقتال، وهو بعيد عن مركز حكمه، فما العمل ؟ وبات ليلة وهو يفكر: هل يبدأ بالدعوة إلى الدفاع من مكانه، أم يرجع إلى مركز حكمه أولا، ثم يجهز الجيش وبعد العدة، ولكن قد يقع الهجوم قبل أن يصل هو إلى مركز الحكم وإعداد ما يلزم للدفاع ليلة مؤرقة في عار تؤكيت (تمزّده) اليوم، وهو يقلب الرأي.

وعلم الجند أن أخبارهم سبقتهم إلى حاكم الجبل أبي عمرو، وأن الرجل موجود في وسط الجبل ومعمعة العمران، وأنه لا يلبث أن يلاقيهم بجموع يحرصون على الموت في سبيل الدفاع عن حرماتهم، كما يحرصون هم على الحياة، فلم يجدوا خيراً من أن يؤخروا هذه الغارة إلى فرصة أخرى، وبكروا بالرحيل ...

كان أبو عمرو إلى هذا الحزم، وهذا العزم، وهذه القوة، مثلا للتواضع واللين بين المؤمنين ... كان يسير ذات يوم ومعه ولد له صغير، فالتقى بأبي سليمان التندميرتي، فنزل عن فرسه إجلالا

لأبي سليمان وتعظيما، وعجب الولد الصغير من سلوك أبيه، فلم يعلم في الجبل رجلا أعظم من الحاكم مقاماً، ولذلك سأل أباه قائلا: من هذا الرجل الذي تنزل له عن فرسك يا أبي ؟..

فقال الأب: أولا تعرفه ؟: إنه أبو سليمان، الرجل الذي أنزل الحمل الثقيل عن ظهره وحملته أنا ... هكذا كانوا يرون الإمارة.. إنها حمل ثقيل يفرح المؤمن عندما يتخلص منها، ولا يتقبلها إلا وهو مضطر، وقد بذل أبو عمرو مجهوداً جباراً ليلقي عن ظهره هذا الحمل الثقيل، حتى تخلص منه في يوم من الأيام، وجاء بعض المشائخ يلومونه على ذلك، فقال لهم: إننى أرغب أن أخلص إلى عبادة ربي قبل الموت، ولو لمدة قصيرة، وإنني أريد أن لا يشتغل فكري بغير عملي في آخر حياتى..

قلت في صدر هذا الحديث إن أبا عمرو قد اشتهر في جميع البلدان بسيرته الحميدة، وخلقه الفاضل، ودينه الكامل. جاء من السودان جماعة من التكرور يحملون بضاعة وافرة للتجارة، ولما يسمعون عنه من علم وعدل، طلبوا مقابلته، فلم يضن عليهم بها، واجتمع بهم: " فملأ أعينهم وافئدتهم علماً وأدباً وحياء " فجمعوا له أربعمائة دينار، وقدموها إليه من أصدقاء معجبين، فامتنع عن أخذها، وترك لهم أموالهم، وفتح أمامهم الأسواق، ودعا الناس إلى التعامل معهم.

إنه مثل سام من أمثلة النزاهة والشرف والفضيلة، لايجده الباحث كثيراً في كتب التاريخ، تاريخ الأمراء الظلمة الذين يزهقون الأرواح، وينتهكون الحرمات، للحصول عليمبلغ قد يكون

أقل من هذا المبلغ بكثير..

ولعله يكون من المناسب أن أختم هذا الفصل بالكلمة البارعة التى وصفه بها أبو العباس:

" وكان ميمون الناصية على نفوسة مدة ولايته "

3. أبو الفضل سهل

هذا رجل لا أريد أن أطيل عنه الحديث،وحسبه أن ولى الحكم على الجبل في وقت بلغت فوضى الحياة في ليبيا مبلغاً يؤسف له، فقد اختاره الناس وغارات الأعداء من الدول الظالمة متوالية، وقبائل البداة الضاربين حول الجبل من الجنوب والشمال لا ينفكون عن السرقة والعدوان. إنهم أقوام لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فلا يستمسكون بحق، ولا يتعبدون بدين، ولا يردعهم خلق عن أموال الناس، وكانوا يتباهون ويتفاخرون بأنواع العدوان الذي يقومون به ومقدار الأموال التى يغتصبونها أو يسرقونها من أصحابها، الآمنين المسالمين.

وتولى أبو الفضل سهل الحكم في الجبل، فشمر للكفاح، وقابل العدوان بالصبر والنضال، ورتب في كل جهة من الجهات المعرضة للسطو حامية ترد الضربات، وتقف للمغيرين بالمرصاد، ولم يلبث إلا قليلا حتى أمن الناس على أموالهم وحرماتهم، وانتشر السلام في كامل الجبل وما يتبعه، بل لقد سار الأمن في جميع نواحي الجبل إلى " غدامس ".

بلغه يوماً أن فساداً يقع في " غدامس "، وأن قوماً من هؤلاء الذين اعتادوا ابتزاز الأموال بالباطل، يرتكبون من الموبقات في " غدامس " ما لا يرضاه الحر الكريم، فجرد حملة توجه بها إليهم،

ورغـم معارضة المشـائخ لـه خوفاً عليـه، فقد أصـر ووصل إلى " غدامس " وضرب على الأيدي العابثة، وأصلح الفسـاد، ونشـر الأمن بين الناس.

هـاب الناس هـذا الحاكم الحـازم، فتوقـف عن الجبـل عدوان المعتدين، وغارات المغيرين، وسـرقات أولئـك الذين لا يخافون في الله إلا ولا ذمة..

وإن رجـلا يسـتطيع أن يقمـع الفسـاد، وأن يـرد كيـد أعداء يتكالبون دون أن يتقيدوا بدين، أو ضمير، لذو فضل ...

أبو محمد
زيد بن أفْصيت الدَّرَفي 30

جـد عائلة توارثـت العلم والحكـم والاسـتقامة، وإن تفاوتوا فيه على درجات، حسـبما وصفهم صاحب السـير فقال: " إن أبا محمـد: الآخرة دون الدنيا، وأبا يحيى يوسـف بـن محمد: الدنيا والآخرة، وأبا داود سـليمان بن أبي يحيى: الدنيا دون الآخرة ". وليس معنى هذا أن أبا دواد أعرض عن دين الله وأسلم قيادة للهوى، وزاغ عن الصراط المسـتقيم، وسـلك الطريق الذي سـلكه الظالمون، فـإن أمثال هـؤلاء لا يمكن أن يلوا أمرا للمسـلمين في ذلك الحين. ولكـن معناه: أن أبـا محمد زهد فـي الدنيا، فلا يقيـم لها وزنا، لايهتـم بطعام ولا لبـاس، وأن أبـا يحيى إذا اجتمـع عنده الردئ والجيد من الطعام واللباس استطرف. أما أبو داود فكان يتأنق في لباسـه، ويسـتطيب لطعامه،] قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ [ويؤكد هذا المعنى ماورد في السـير: " وكان أبـو محمد إذا قام من مجلس القضاء أكل ما حضر، وأبو يحيى يأكل ما خبز، وربما استطرف، وأبو داود يأكل اللحم والقمح وتمـر فزان في أكثر أوقاتـه، وكانت أيام أبي داود سـليمان مباركة على نفوسه. " 53

تولى أبو محمد، ثم ابنه أبو يحيى الحكم على جادو، أما أبو داود وأبو محمد عبدالله ولدا أبي يحيى فقد توليا الحكم على أهل زمور – قرى الرجبان اليوم – وقد كانت أحكام الجميع وسيرهم سير من سبق من السلف الصالحين.

إن كل واحد من هؤلاء الأعلام يستحق أن يشغل من وقت الدارس فراغا لمن أراد أن يتتبع أحداث التاريخ، ولكني في هذه الفصول إنما أعرض صوراً، وقد يجمع الإطار الواحد مجموعة من الصور، ولمن أراد الاستقصاء أن يرجع إلى كتب التاريخ، وفيها يجد ما يشبع نهمه عن كل واحد من هؤلاء الأعلام.

وحسبي هنا أن اذكر للقارئ الكريم: أن شهرة هذه العائلة في العلم والعمل لا تزال على ألسنة الناس اليوم، وإن دارهم التي أطلق عليها دار بني عبدالله، كانت مأوى للأخيار من كل مكان، وملجأ للمضطهدين، وقد كان واسطة عقد هذه العائلة: العلامة أبو يحيى: من أعلام الإسلام ؛ درس على العلامة أبي محمد الكباوي، وقال عن نفسه: لقد جمعت العلم بالقصعة، وفرقته بالأقداح، وهذه العبارة على اختصارها، تبين الفرق الواسع بين مواهب الناس، وما تمنحه إرادة الله لخواص عباده.

وفي زمن حكم أبي يحيى هجمت زنانه بجيش قوامه ألف محارب على قصر " أدرف "، فخربوه، ولكن خراب القصر وخراب قرية " أدرف " كلها لم تهدم البناء الشامخ الذي أقامته عائلة بني عبدالله، وفي الحين الذي يذكر التاريخ في إجلال عظمة أبي يحيى وأسرة بني عبدالله، يلعن هذا الجيش الذي يهجم على

قرية آمنة مطمئنة على حين غفلة من أهلها، فيقتل سكانها، ويخرب بنيانها.

أبو زكريا
يحيى بن سفيان اللّالوتي 34

نشأ في " لالوت " هذه المدينة التى كانت مقراً للعلم، ومثابة للعلماء، وحسبه تعريفاً شهادة العلامة أبي العباس حيث يقول: " وكان حاكماً عادلا، وعالماً فاضلا ". وقد ذاع صيته، واشتهر بعلمه ودينه،وعدله، حتى عرفه الناس بذلك واعترفوا له، فكان يقدمه في الصلاة حتى المخالفون له في المذهب، وكان في مرتبة من التواضع واللين، لايصل إليهما إلا الندرة القليلة من عباد الله المؤمنين ...

كان حاكماً، ولكنه لم يكن من الطراز الذي يعرفه الناس هذه الأيام، إن الحكم عند أبي زكرياء وأضرابه يعنى التضحية بالوقت والجهد والمال، دون أخذ شئ، إنه أداء واجب لا شكر عليه، ولا مقابل له، إلا ما عند الله، ولذلك فإن الحكم على أولئك الذي يلون أمراً من أمور الأمة، فيتخذون ذلك وسيلة إلى ابتزاز أموال الأمة والانتفاع بجهود أفرادها. إن هؤلاء قد خانوا الله، وخانوا الناس في أمانتهم.

كان أبو زكرياء يعمل كأي فرد من الناس، لايرى لنفسه حقاً عليهم، فكان يقوم بزراعته كما يقوم بها أي شخص آخر، وذات

يوم حصد الزرع، واحتاج إلى جمل يحمل عليه ما جمع من زرع، وكان له جار قد هيأ جمله ليحمل عليه زرع نفسه، فلما سمع بحاجة الشيخ أراد أن يؤثره على نفسه، وذهب إليه بجمله، فانتهره الشيخ، ولم يقبل منه هذا الإيثار، الذي طاب به الجار الكريم نفساً، وخشى العالم الحاكم أن يكون الجار أقدم على ذلك بدافع الخوف، أو بدافع الحياء، فلم يرد أن يتقبل مساعدة الناس على أحد الدافعين.

وتقلب الزمن، وتغير وجه التاريخ، وتوفى الشيخ، فجاء ولده إلى نفس المكان، وحصد زرعه، واحتاج إلى جمل يحمل عليه، فذهب إلى جاره، وكان هو نفس الجار الذي انتهره الشيخ لما آثره على نفسه، وكان الرجل قد أعد زرعه وأعد الجمل ليحمل عليه، فطلب ابن الشيخ منه الجمل ليحمل عليه، فاستمهله الجار الطيب حتى يوصل حمله ثم يرجع إليه الجمل. فغضب الشاب، لأن الرجل لم يؤثره على نفسه. فقال العامل الساذج الطيب: " إن ذا لمن العجب ! ... الشيخ يغضب إذا آثرناه على أنفسنا، وابنه يهددنا إذا لم نؤثره. " 55

إن الفارق بين الأب والإبن فارق عظيم، فلقد كان الأب من أولئك الأبطال الذين ينتصرون على أنفسهم قبل أن يلتحموا بالمعارك الحامية بعيداً عن أنفسهم، والمؤمن إذا انتصر على الشيطان في معركة النفس، سهل عليه أن ينتصر في كل ميدان، ولكنه إذا انهزم في المعركة الأولى،فإنه لن ينتصر في بقية المعارك،مهما بذل من جهد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؛ جهاد

النفس). لقد وثق المشائخ بأبي زكرياء فولوه شؤون الأمة، وكان إلى قيامه بهذا العبء الثقيل. لا يرزأ الأمة في شئ من مالها، وإنما كان يمون نفسه وأسرته بعمل يديه، كما يقوم بذلك أي فلاح عادي، ولم يشغله هذا العبء الثقيل عن مشاكل الناس، ولا هذا الكفاح الطويل في إعانة الأسرة، لم يشغله كل ذلك عن ممارسة أحب عمل إليه، وإليكل عالم يتجه بعلمه إلى الله، ويقدم جهوده للأمة خالصة، ذلك العمل الحبيب إلى كل عالم يقدس المعرفة، والتعليم، ونشر الثقافة، وتربية الأجيال،ولقد خصص أبو زكرياء زمنا من وقته الثمين للتعليم، وهداية الناس، وإرشاد أبناء الأمة، وكان الطلبة يتسابقون إلى الارتشاف من هذا المنهل العذب، ويتزاحمون عليه تزاحم العطاش على الصافي النمير، ولقد كانت له دروس لا تقتصر على صغار الطلبة والمبتدئين، بل يحضرها كثير من العلماء الأجلاء، فإن مجالسه العامرة بالموعظة الحسنة والدعوة إلى سبيل الله، لخليقة أن يحضرها كل من تهفو نفسه إلى المزيد من الاطلاع على أسرار الشريعة السمحة، وكان في أحد هذه الدروس التى يتخذها لشرح وجهات النظر المختلفة، ويكشف فيها وجوه الرأي وآراء المجتهدين، ويعقب بذلك عليتلك الآراء، ويرجح منها ما يوافق التيسير على الناس، وكان أبو الربيع حاضراً هذا المجلس، فغضب من هذا الترخيص للشيخ، وترجيحه ما يقوم على اليسر والخفة من آراء العلماء وأقوالهم ؛ فقام وهو يقول: لا أحضر مجلساً يفتى فيه بمثل هذا.. فأجابه العالم الأستاذ الذي يعرف من أسرار الشريعة،ومن طبائع الناس، ودخائل نفوسهم، ما لا يعرفه كثير من أصحاب

العلم، ويفهم من طبيعة الحياة، ومن دواعى العمل، وما يناسب ذلك في مختلف الأزمنة والأمكنة، ما لا يفهمه الكثير، أجابه يقول: إن لم ترد فقم ... وقام أبو الربيع الغاضب وفارق مجلس الشيخ على هذه الحال،ولكنه ما توارى من الباب حتى قال الشيخ لطلابه: ردوه؛ إن لم يفهم هو، فلا يفهم غيره ... وتواثب الطلاب في خفة ليدعوه، فلاقوه راجعاً فقد فكر واقتنع بوجاهة رأي الشيخ، وبعد نظره، ومعرفته بأحكام الدين، والأصول التى تبني عليها الفتوى، وعرف أن العالم الذي يفتى للناس، يقوم بعمل يشبه عمل الطبيب، فقد يفتى لرجل بفتوى لا يفتى بها لشخص آخر في سؤال مشابه، كما يناول الطبيب شخصاً ما دواء لا يعطيه لمريض ثان له أعراض ذلك المرض.

وقد رأى كثير من حذاق العلماء، أن الغني الذي يوفر لديه المال، وجب عليه كفارة، لايفتى له بالإطعام، وإنما يفتى له بالصوم.

وأبو زكرياء من أخلص الناس إيماناً وأشدهم ورعاً، وأغزرهم علماً، فهو حين يقدم على عمل، أو يصرح بقول، يكون قد فكر قبل ذلك، فأخلص العمل لربه، واستبرأ لدينه وعرضه.

وخلاصة القول: أنه أحد أولئك الأبطال الذين انتصروا عليالشيطان في أنفسهم، وقدموا أعمالهم لله خالصة، وقادوا أمتهم إلى الخير، دون أن يرزؤها في مال أو دم، وقد كان مثلا للمسلم القانع الراضي بما قسم الله له، والعارف بحقيقة الدنيا وزخرفها.

زاره المشائخ يوماً فأكثر لهم اللحم،وكان الطعام قليلا،

فاعتـذر لهم بضيق الحـال، وزاروه مرة أخرى فأكثـر لهم الطعام وقدم لهـم زيتاً، ولم يقـدم لهم لحماً، ولم يعتـذر، فقيل له في ذلك؟ فقال: لا تقصير مع الطعام والزيت.

إنـه رجل لا يعـرف المظاهر الجوفـاء، وإنما يعـرف الحقائق التى تنبني عليهـا الحياة، وحقيقة الغذاء الذي تقـوم عليه الحياة في الجبل إنمـا هو الطعام والزيت، وليس اللحم مادة ضرورية في ذلك الحين.

ولعـل فـي قصة أم المؤمنين عائشـة رضـى الله عنها وزوجة معاوية بن أبي سـفيان عبرة وموعظة لهؤلاء الذين يسرفون في اتباع الشـهوات، فقد قيل: إنه قدم لأم المؤمنين عائشة عشاؤها الذي يتكون من خبز وزيت، وكانت زوج معاوية حاضرة، فدعتها أن تشـاركها هذا الطعام، لكن الزوجـة التى ربيت في بيت معاوية، وبين موائد الشـام، اعتـذرت لأم المؤمنين، وأخبرتهـا أنها تعودت أن تـأكل أرق من هذا وأشـهي، فرفعت إليهـا أم المؤمنين عينين متعجبتين وأخبرتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يشـبع من الخبز والزيت، ولو أراد رسول الله لكانت له موائد أحفل مما يقدم لكسـرى وقيصر ... وصـدق الذي أوصى فقال: لا تجعلوا بطونكم مقابر للحيوان.

درس أبـو زكريـا على العالمـين الكبيرين: أبـي محمد خصيب التَّمَصْمِصِي، وأبي عبدالله محمد بن جَلداسِنْ.

أبو عبدالله
محمد بن جلداسن اللالوتي 36

نشـأ في " لا لوت " بلد الأشياخ والعلم كما قال أبو العباس، وقد تحدث عنه وقال فيـه: " وكان بحر العلم الزاخر، وإمام الحكام الفاخـر، قيل له: في بعـض أحكامك ضعف، قـال: اقعدوا على طريـق الحطابة، فـإن رأيتم معهم عـوداً يابسـاً فصدقتم أنني ضيعت شيئاً من الحق ".

وتكفي هذه الشـهادة للدلالة على علم الرجل، وعلى عدله، وعلى قوة إرادته، وصلابته في الحق، إنه يحكم ويعدل، وحين يتهم بالضعـف في أحكامه يتحدى - في ثقـة الرجل الذي يزن قوته، ويعرف سـطوح حجته- أولئك الذين يتهمونه بضعف الأحكام، أن يظهروا له هذا الضعف الذي انتقدوه عليه في نتائج الأحكام، ومـا يعقبها مـن آثار، ويصمـت المعارضون، لأنهـم لا يجدون ما يردونه به على هذا التحدى، فهذه نعم الله تسبغ عليهم ظاهرة وباطنة، وهذه الخيرات مبثوثة على الطبيعة، وهذا الأمن منتشر، والسلام يسـود الربوع، والناس مشتغلون بأعمالهم، راضون عن حياتهم، وحقوقهم مكفولة، لايضيع منها حق، ولا يطغى قوي على ضعيف.

وكان إلى هذه القوة في الحق، والمعرفة بالعدل ومجاريه، عالماً بأسرار الشريعة، يحارب الوسوسة والجمود، والتشدد في دين الله.

كان يوما " بشروَس " وقد نزل مطر غزير، فذهب إلى المسجد، ومشى بخفيه حتى دخل المسجد، وصلى بالناس، ليزيل من أفكار الموسوسين المتشددين ما يظنونه نجساً مما يتطاير من ماء المطر في الشوارع.

وقف له بعد الصلاة أحد المؤمنين الذين يعرفون من أحكام الإسلام مثل ما يعرف، ويعرف من طبائع النفوس البشرية بعض الجوانب التى غفل عنها العالم الكبير، فقال له: " إن متولى الناس مثل اللبن، يغيره أدنى ما يقع فيه " وفهم الشيخ ما ترمى إليه هذه الملاحظة الدقيقة، واقتنع بوجاهتها، فسلم يعد لمثلها، فإن بعض الناس قد يفسرونها بالتهاون وعدم الاحتياط والأستهتار، وهؤلاء الناس قد لا يجسرون على إبداء آرائهم هذه، ومناقشتها بالحجة ليعرفوا حكم الله، ولكنهم يجعلونها مادة الحديث والتعليق، وتنسى القضية نفسها، لكن الحكم المترتب عليها من المتهاون والاستخفاف ينتقل من أذن إلى أذن، حتى يشيع وينتشر ...

كانت أم سحنون اللالوتية من فضليات العجائز، مؤمنة، عالمة، ناصحة، وكانت مزاراً للمشائخ والعلماء، تفيض عليهم من أدبها، وعلمها، وخلقها، ودينها، ونصيحتها، وسار يوماً أبو عبدالله في جماعة من المشائخ لزيارتها، فلما كانوا ببعض

الطريق، وقد قربوا منها، سمعوا أن حدثاً وقع "بجادو "، فاضطروا إلى الرجوع، واضطر أبو عبدالله بوصفه حاكم الجبل أن يعود ليرى هذا الحدث الذي وقع بجادو، مدينة نفوسة، ومركز الحكم في أكثر الأحيان، غير أن أبا هارون لم يرجع معهم، وأتم ما عزم عليه من زيارة هذه المرأة الصالحة، فلما أخبرها برجوع المشائخ قالت: " يا أخي أخشى أن أكون ممن قيل فيهم: إذا زارت الأخيار فاسقاً سد الملائكة عليهم الفجوج، وإذا زار الأشرار صالحاً قيدتهم الملائكة ." 56

لقد كان أبو عبدالله من أولئك العلماء الذين امتلأت الكتب بأقوالهم وآرائهم وسيرهم، أما الصورة الكاملة لحياة هذا الرجل، فهي تشبه إلى حد كبير ما تقدمها من الصور التى عرفتها لأولئك الأعلام الذين وثقت بهم الأمة، فحملتهم أعباء الحكم ... وساروا بتلك الأعباء الثقال، لا يتعثرون، يعملون لله والأمة، لا يغرهم السلطان، ولا تخدعهم المظاهر البراقة، ولا يلتفتون إلى نعيم الدنيا.

أبو زكرياء
بن أبي عبدالله التَّنْدميرّتي [37]

شخصية من تلك الشخصيات التى تحتاجها الشعوب في أوقات الوهن والضعف، ولاة المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبدالله، حفيد أبي منصور... أبو منصور الذي عرفه التاريخ في أنزه موقف وقفه محارب، وبأشرف سيرة سارها أمير، أما حفيده عبدالله، فيكفي فيه ماقاله عنه أبو العباس: " أما أبو عبدالله، فلم الشعث، وكشف اللبس، ورتق الفتوق، ورقع الخروق " ومن هذه الأسرة الكريمة التى شرفها الإسلام، وشرف بها المسلمون، انحدر أبو زكرياء.

ولاه المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبدالله، فبقي في هذا المنصب الخطير، منصب الأمير أو الإمام، ستين سنة، لم يتغير فيها خلقه، ولم يفسد طبعه، ولم يتغلب عليه الطمع، ولم يدخله الغرور الذي يعبث بالنفوس من أصحاب السلطان.

دأب منذ أسند إليه حكم الجبل، أن يحاسب نفسه كل ليلة، ولا يأوي إلى مضجعه حتى يزن ما قام به من أعمال، ثم يميز جميع من يدخل تحت حكمه، فيعرف من يستحق الأدب، ومن يستحق المواساة، ومن له الحق، ومن عليه الحق.

دأب على هذه السيرة طول مدة إمارته خوفا من التقصير، وخشية من العىّ عن الجواب يوم الحساب، إذ كل راع مسؤول عن رعيته.

هكذا كان أبو زكريا يقضي وقته وهو أمير على جبل نفوسة، شغل متواصل طول اليوم، ينسى فيه نفسه وأهله وماله، فإذا أوى إلى بيته في الليل، ليجد قليلا من الراحة، حسد نفسه عن أن تنال هذا القسط الضئيل من الراحة، ونأى بروحه عن أهله وأبنائه، لأن المسلمين بقية حقوق تترتب بذمته لم يتأكد أنها وصلت إليأصحابها كما يوجب الحق والمروءة.

وفي هذه العزلة الروحية، وهو في بيته، بعيد عن ضجيج الناس، يستعرض شريط اليوم، ليرى فيه هذه المملكة التى يتولى أمرها، فيمر بين عينيه ذلك الشريط بما يحمل من صور الناس في الحياة.

ويتذكر أبو زكريا من غفل في زحمة الحياة، وأنساه إياهم الدوي الصاخب.. فيمر بين عينيه في ذلك الشريط: القوي الذي اعتمد على قوته فأخذ من حقوق الناس، ويمر به الضعيف الذي قعد به الضعف حتى عن الوصول إلى الحاكم، ويمر به الغني الذي تجري الثروة بين يديه ومن خلفه، فيحيا حياة الرغد والرفاهية، ويمر الفقير الذي يتغلب على الحياة بالقناعة وينتصر على الجوع بالصبر ويستر العرى بالتواري عن مجامع الناس.

وبعد أن يصفى حسابه مع الله ومع نفسه في يومه الماضي، ويضع خطوط العمل ليومه المقبل ؛ بعد ذلك يعود إلى إعطاء

حقوق أهل بيت من أولاد وزوجة وغيرهم، ويصبح إنساناً كسائر الناس، يتكلم مع أهله وأبنائه، ويستعرض شؤونه الخاصة وموارد رزقه الطيب.

وعندما يقوم في الصباح ليتولى العمل من جديد، يكون أول ما في مخططه اليومي استخراج الحقوق ممن لم تستخرج منه، وإنزال أحكام الله على من يستحقها

كان شديداً في الله، يتعقب الجناة والمجرمين، ولا يتهاون في ذلك أبداً. ذُكر له: أن جانيا في قرية " جناون " آوى إلى أهله، وبات عندهم. فهجم عليه صبيحة العيد،بعد ان صلى صلاة الصبح في مسجد أبي عبيدة، وطلب من العزابة تسليم المجرم، وإيصاله إلى السجن في " جادو " حتى يحكم فيه بحكم الله.

وذكر له: أن جانيا آخر بات في " ويفات " وهي قرية تبعد عن جادو مركز حكمه ما لايقل عن عشرة أميال، فهجم عليه هو وأصحابه، وأنفذ عليه الحكم وقد حاول الجاني أن يعتدى على الأمير الشديد في أمر الله، وهم أن يطعنه بخنجر، فتلقى عنه الضربة أحد الحاضرين الواقفين بجنبه، فقال أبو زكرياء: يقال في المثل: أحبك ولا كنفسي، وهذا الرجل أحبني فوق نفسه.

تخاصم إليه رجل وإمرأة على مال، وكان أبو يوسف الأجفري حاضراً، وهما من بلده، فقال له: ما تقول يا أبا يوسف ؟ قال أبو يوسف: إن جزت على المرأة أسلّم، وأسال لها العون، وإن أطعمتني أكلت ... وإن مررت عليالرجل لا أسلم، ولا أسال له العون، ولا آكل إن أطعمتنى ... قال أبو زكرياء للرجل: اسمع ما يقول أبو يوسف

يا أبافلان.. قال الرجل: مالي ياشيخ ؟ قال أبو زكرياء: اسمع يا فلان ما يقول أبو يوسف، قال الرجل: مالي يا شيخ ؟ قال أبو زكرياء: يا مرعون إن ذهبت إليه لأجعلنها في جنبك ؛ يعنى السياط.

إن الرجل الذي يتمادى على الباطل، ويستمسك بحق الناس، حقيق أن توضع في جنبيه السياط.

كان أبو زكريا عالما من أفذاذ العلماء، ولكنه مع سعة علمه أراد أن يطمئن في أحكامه إلى فتاوي من مشائخ يوثق بعلمهم وفهمهم، فاستنصح أبا محمد الدرفي، فنصحه أبو محمد أن يستفتي في نوازله، والمشاكل التى تعرض عليه الشيخين العالمين: أبا محمد الكباوي، وأبا يحيى الفرسطائي، فيحكم بما اتفقا عليه، ويتوقف فيما يختلفان فيه، فكان يستفتيهما، غير أن أبا يحيى كان يجيب إجابة العالم الواسع الاطلاع، فيناقش الموضوع مناقشة طويلة، ويبحثه من جميع نواحيه، ويستعرض الأقوال الواردة فيه، دون ترجيح، أما أبو محمد الكباوي، فكان يقصد إلى أرجح الأقول، ويحدد الموضوع في إيجاز وتلخيص، وهذا ييسر العمل على الأمير الكثير الأشغال، فاعتمد على فتوى أبي محمد، ولما توفى أبو محمد، حضر جنازته وشيعه إلى مقره الأخير، وعندما أراد مغادرة المقبرة، قال: سلام عليك يا كاباوى، ولما مر بقرب منزله قال: لقد أصبحت أيها المنزل كغيرك من المنازل.

ثم استفتى بعده أبا محمد خصيباً.

حاول عدة مرات أن يتخلص من أعباء الحكم، وأن يلقى عن كاهله هذا الحمل الثقيل، ولكنه لم يتمكن من ذلك، لأن أهل

الشورى من المشائخ لم يوافقوا على ذلك أبداً.

وبعد: فما هو المبلغ الضخم الذي جمعه هذا الأمير حكم الجبل ستين سنة ؟ وما هي القصور التى شادها ؟ والجنان الفسيحة التى امتلكها ؟ إنه لا شك جمع ثروة طائلة، تركها لأبنائه، وسوف ينعمون بها طيلة أجيال متعاقبة. أما هو وأسرته فلا بد أن يكونوا قد نعموا بالمال، وعاشوا في رغد ورفاهية.

ولعل في القصص الآتية شواهد تدلنا على مبلغ ما كنز هذا الرجل من مال، وجمع من ثروة.

ولد له ولد فبعثت إليه زوجته تطلب كمية من الزيت للاستصباح ودهن الطفل، فكم يا ترى يستطيع أن يبعث إليها في هذه المناسبة السعيدة ؟ إن أي موظف بسيط أو شيخ قبيلة، يمكن أن يبعث لزوجه في مثل هذه الحالة ما يكفيها أسبوعاً، أو شهراً، وإذا لم يكن هذا المقدار عنده، استطاع أن يحصل عليه بأي وسيلة من الوسائل، أما هذا الأمير الذي يتصرف في مال الجبل كله، ويتحكم في تصريف ما في " نفوسة " من زيت، لم يستطع أن يبعث إلى زوجه الحبيبة، وهي نفساء، وإلى طفله الوليد وهو يستقبل الحياة...لم يستطع أن يبعث إليهم شيئاً، لأنه لم يجد في ملكه الخاص ما يبعث به، أما أموال المسلمين، وزيوت الأوقاف التى تصرف تحت رعايته، فلم يستطع أن يمسها، لأنها أمانة في عنقه، وهو أخشى لله من أن يخون الأمانة، وأبلغها أنه ليس لديه زيت، وما دام لا يجد في ملكه الخاص زيتاً، فعليها أن تستصبح بالحطب، أما الوليد فيكفيه التنظيف

بالماء، وعلى زوجة الأمير أن تقنع بهذه الحياة إن كانت مؤمنة ترجو خير الآخرة، وإلا فإن هذا الرجل ليس برجل الدنيا الذي تغره الحياة بالنعيم الزائل..

وفي القصة الآتية مثل آخر يبين لنا كيف يستطيع أن يجمع مثل هذا الأمير ثروته الطائلة، التى لا تنبض:

مر على بعض الأحياء فاستضافوه، ولكنه اعتذر، فجاء صاحب الحي بعدد من الكباش، وقدمها للأمير وهو يقول له: هذا غذاؤك وغذاء أصحابك حيث لم توافق على البقاء ! ... فهل فرح لهذه الكباش ؟ وأمر بسوقها ليضعها إلى ما جمع من ثروة ؟

لم يفعل شيئا من ذلك، ولكنه أجاب صاحب الكباش بهذه الكلمة التى يجب أن توضع بين عيني كل صاحب سلطة من أولئك الذين يجمعون الرشاوي، ويبتزون أرزاق الشعوب، ولا يعفون عن أموال الدولة، قال: "لو كلفت بحمل قرونها ما قدرت،فكيف بحملها جميعاً يوم القيامة"(58)وترك الكباش لصاحب الكباش، وعاش الطفل على نور الحطب، وضرب أبو زكرياء لعبيد الدنيا المثل الرائع الذي يجب أن يتعظ به أولئك الذين تسند إليهم أمور الناس، ويؤتمنون على ثروات الشعوب، لقد فنيت جميع الثروات التى جمعها الجبابرة، ولكن هذه الثروة الخلقية التى تركها هذا المؤمن الصابر لم تفنى، ولن تفنى، وما عند الله خير وأبقى.

حضر إليه بعض المشائخ في أواخر أيامه، وسأله عن رأيه فيمن يولونه أمورهم، ويسندون إليه حكمهم من بعده، فاختار لهم: أما أبا زكرياء اللالوتي، أو أبا يعقوب البغطوري، أو أبا داود

سليمان الدرفي.

لما أشتد عليه المرض رأى جماعة أن يرجعوا به إلى بلده تندميره، فحملوه، فلما أفاق من غشيته وجد نفسه محمولا، فسألهم عن ذلك ؟ فأخبروه أنهم يريدون به بلدة " تندميرة " فأمرهم بإنزاله في موضعه، وكان قرب " تمزده " وهنالك فاضت روحه الطاهرة، رحمه الله، ولا يزال قبره مشهوراً معروفا هناك.

واجتمع المشائخ بعد وفاته، فولوا مكانه أبا موسى عيسى – فاتبع خطاه وسلك مسلكه، وسار بسيرته. قوة في دين الله، وغلظة على العصاة والمجرمين وإيصال للحقوق إلى أهلها، وعدل بين الناس يستوى فيه الكبير والصغير، والجليل والحقير.

أدب رجلا على عمل ارتكبه، فتألم ولم يصبر.. فقال له أبو موسى: أبلغتك حرارتها يا عدو الله ؟ فقال المضروب: أو لم تذقها ؟ فقال الحاكم القاضي العادل: ذقتها وكانت لي رشداً وصلاحاً ...

ترتب الحق يوما على داود بن علي، وكان من العظماء أصحاب الثروة، مهيباً بين الناس، صاحب قدر ومقام، فلما أراد الحاكم أبو موسى إقامة الحق عليه، أعرض ونأى بجانبه، وازور عن الحق، وثنى عطفه تكبراً أن يؤخذ منه الحق، ويقام عليه الحد، وقام من مجلس الحكم...

أمر أبو موسى برده، فلم يجد بين الحاضرين من يقوى على رده..

وفكر داود بن علي في الموضوع، ثم رجع إلى مجلس الحكم، وطلب من أبي موسى إقامة الحق، وقال له: رجعت إلى مجلسك

لتقيم على الحد لثلاثة أسباب:

` الأول: لا أريد أن أترك التكبر عن أخذ الحق سنة يتبعها كل متكبر.

` الثاني: تواضع مثلي لمثلكم لا يزيده إلا رفعة وعزاً.

` الثالث: أن في أبناء الأمة غيري، ومن هو أعظم مني.

وطلب أبو موسى من جديد إلى الحاضرين أن يقوم أحدهم بتنفيذ الحكم فلم يجد أحداً، فقام وهو يقول: " تعلم ربى أنه لو لم يكن رضاك إلا في نزع نفسى لنزعتها 59 ونفذ الحكم.

ولست أدري أيها القارئ الكريم وانا أقص عليك هذه القصة هل تعجب مثلى بهذا الخلق المتين، من الحاكم والمحكوم، بل إني لحائر بين الرجلين، لا أعرف أيهما أعظم، أهذا الذي يصر على تنفيذ حكم الله مهما كانت النتائج، أم هذا الذي يحكم عليه، ثم تعجز سلطة الحكم عن تنفيذ قرارها، وبعد أن يتيقن أنه لا أحد يقوى على تنفيذ الحكم عليه، يجيء إلى الحاكم مستسلما خوفا من أن يترك سنة سيئة يقتدي بها الناس، فيما إذا ركبتهم الحقوق، وتعلقت بهم الواجبات ... أنه خلق لم يوجد إلا في الرعيل الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم..

أبو هارون

موسى بن هارون 40

نشأ أبو موسى هارون بن هارون في " تملوشايت " وأخذ مبادئ العلم عن مدارسها العامرة، ثم ألتحق بأبي محمد التمصمصي، وفي هذه المدرسة التى أعدت أعلاما، وخرجت فحولا، تخرج أبو هارون، علماً من أعلام الإسلام، وبطلا من أبطال المؤمنين، وجدّاً لأسرة متسلسلة في العلم والإيمان والكفاح من أجل المثل العليا التى حارب من أجلها محمد صلى الله عليه وسلم، وناضل عنها المؤمنون في كل زمان ومكان.

كان رحمه الله عامر القلب بالإيمان، براً، تقياً، عفيف اليد واللسان، وكان مع ذلك ذا قوة وصمود في النضال عن الحق، وحمايته من أطماع الطامعين.

كان أبو محمد خصيب هو مفتى الأمير أبي زكريا التندميرتي بعد أبي محمد الكباوي، وكان أبو هارون يحرص على حضور مجالس أبي محمد خصيب، لما يستفيده منه من علم جديد، ونزل أبو زكرياء يوماً إلى جناون، ونزل إليها أبو هارون، ولكن أبا محمد خصيباً لم يتمكن من النزول، لأن ضعف الشيخوخة حال دونه، واحتاج أبو زكرياء إلى فتوى، فطلب من أبي هارون أن يتقدم

لها، ومن ذلك اليوم أصبح أبو هارون يفتى لأبي زكرياء، حتى لحق أبو زكرياء بالله، وتشاور المشائخ فيمن يلى أمورهم، فأسندوها إلى أبي موسى عيسى، ثم أسندوها من بعده إلى هذا العالم الذي أحسن القيام بها، ورعاية شؤونها ...

في قرية " إِبَنايَنْ " التى لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس، كانت إحدى العجائر التى يسميها المشائخ الجدة، وكانت تقية صالحة عالمة مؤمنة، تفيض على جلسائها بالخير والصلاح، واعتاد أبو هارون أن يزور هذه العجوز، فيقتبس من خلقها وعلمها ودينها،ولما أسند إليه الحكم، وألقى عليكاهله هذا العبء الثقيل، نقل مركز حكمه إلى هذه القرية الجميلة التى تحضنها الجبال البشرى، وتنبسط عند أقدامها الوديان الخضر، ليكون قريباً من هذا العقل البشري المستنير، وهذا القلب المؤمن الصافي... نصحه بعض المتملقين أن يشتري الأملاك الثابتة، حتى تبقى لأبنائه من بعده، فأجاب هذا الناصح بقوله: " من يتبع منهم طريق الهدى لا يعدم من الله خيراً، ومن نبذه وراء ظهره فلا أعدمه الله جوعا ".

وقارن أيها القارئ الكريم بين أمير لا يترك لأبنائه غير الله، وأمير يجمع المال من كل سبيل، لا يفرق بين حلال وحرام، ثم يتركه لأبنائه يعبثون به، ويلقى الله بالحساب..

سار أبو هارون بأعبائه الثقال من شؤون الأمة، كما سار بها أولئك الذين سبقوه بالحسنى، أقام الحق بين الناس، وحمى الوطن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين ...

وكانت زوجة أبي هارون امرأة صالحة يحبها وتحبه. وكانت عالمة ذكية، ولكنها غير ولود.

ونصحه المشائخ أن يتزوج غيرها عسى أن يرزقه الله أولاداً صالحين...

ففوض إليهم أمر الاختيار، ووكلهم على القيام بهذه المهمة، وكل ما اشترط عليهم: أن يختاروا له امرأة يتوفر فيها الصلاح والتقوى.

وتشاور المشائخ، ودرسوا الموضوع، واستعرضوا عقائل الجبل، فاتفق رأيهم، ووقع اختيارهم ... من تكون هذه المرأة التى يتفق المشائخ على اختيارها زوجة لأعظم رجل في ذلك الحين ؟

لقد كانت جدة المشائخ السيدة " تابركانت " أعظم امرأة في الجبل وأصلحها،وكانت لها بنت ربتها على الخلق الكريم والدين القويم وثقفتها الثقافة التى تصلح للمرأة في ذلك الزمن الذي تشارك فيه المرأة الرجل في أهم الميادين بالرأي والنصيحة والإرشاد من وراء الحجاب، وقبلت الفتاة ورضى الشيخ، وزفت العروس الصالحة إلى العالم المؤمن، ورزق أبو هارون بعدد من الأولاد أقروا عين والدهم الشيخ، وخدموا الأمة بإخلاص.

كان قبل أن يتولى حكم الجبل، يقوم بالتدريس، وكان يقوم بالرحلات العلمية مع طلابه، فيدرسون البيئة، ويعلمهم أدب السلوك، ويعرفهم بالناس، ويوضح لهم طريقة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويدربهم على القيام بدروس الوعظ والإرشاد، وكثيراً ماكان ينزل بهم على أم ماطوس، المرأة التى استطاعت

ان تتغلب على إرادة أهلها في سبيل الدراسة، حتى بلغت مرتبة تتقاصر عنها أعناق الأبطال..

أبو الربيع
سليمان بن أبي هارون/4

غلب عليه لقب الشيخ، حتى أصبح علماً عليه، أخذ العلم عن أبي يحيى زكرياء بن سفيان اللالوتي، وأبي سهل البشر بن محمد التندميرتي، وأبي يوسف وَجْدَ لِيشْ بن في اليُجْلاَنِي وأخذ عنه بَشَر كثير.

سافر إلى الحج مع مجموعة من العلماء الأعلام، فترافقوا اثنين اثنين، فكان رفيقه أبا يعقوب البرني، وطال الطريق بهم، كان الرفاق يفترقون ويجتمعون ماعدا أبا الربيع وأبا يعقوب، فقد أمضيا الطريق كله في صحبة ممتعة، بين مذاكرة في فنون العلم وتعاون على ذكر الله.

وكان الركب إذا سئلوا عن عالمهم قالوا: أبو الربيع وأبو عبدالله الدرفي. وإذا سئلوا عن عابدهم قالوا: أبو موسى الدجي، وإذا سئلوا عن سخيهم قالوا: زكرياء بن عمار الشروسي، وإذا سئلوا عن أفضلهم قالوا: أبو يعقوب البرني. وعلق ما شئت أيها القارئ الكريم عن ركب يجتمع فيه هؤلاء الأعلام..

جمع أبو الربيع إلى العلم الواسع، والدين القويم، والخلق الكريم، شدة في الحق لا تلين، ومحافظة على دين الله لا تفتر،

وسيرة صالحة لا تضعف...

اشتهر طلوع هلال شوال فأفطر الجبل وبلغه أن بعض المتنطعين الجامدين أمسكوا عن الإفطار ولم يوافقوا الأمة في علمها بالشهرة فتتبع هؤلاء المتنطعين حتى بلغوا جادو وهو يلزمهم الإفطار ويكسر عليهم هذا الصوم الذي يخالفون فيه الدين والأمة ويغير هذا الحدث الذي كان خليقاً أن يحدث شغباً وخلافاً بين الناس.

وكان قوياً في العبادة شديداً على نفسه يعتقد أن في طوق جميع الناس أن يعملوا مثل ما يعمل.

صام مرة في جادو وكان حاكم الجبل حينئذ أبا عمرو وكان أبو الربيع إما أن يكون في مجلس العبادة أو في مجلس العلم لا يعرف النوم والراحة، فقال للأمير: حجر على الناس أن يناموا بالليل مدة صيامهم، ومن كسر الحجر فالسجن أولى به ... ولكن الأمير لم يعمل بهذا الطلب، وسار الزمن وأسندت الإمارة فيما بعد إلى أبي الربيع، ويظهر أنه ازداد خبرة بطبائع الناس ومعرفة بالضعف البشري، فلم يحجر على الناس النوم بالليل، وإنما كان يدعوا إليه من كان يقوى على إحياء الليل، فيحيونه يعبدون الله، أو يتذاكرون فنون العلم.

كان داود بن تيتيس طاغية متجبراً مثل جلدين بن فلاوسن، ولم يستطع المشائخ في جادو أن يلقوا عليه القبض وينفذوا فيه حكم الله، فجاء أبو الربيع وبصحبته أبو عمرو وأبو موسى الدجي وطلبوا من أبي داود الدرفي أن يرافقهم، فهجموا على ابن

تيتيس والقوا عليه القبض وأودعوه في السجن حتى حكم عليه المشائخ، ونفذوا فيه الحكم..

استحق يوسف بن عبدالله من أهل إكَرَّايَنْ الأدب، فأوثقه أبو الربيع في سلسلة حتى يجرى عليه الحكم، وقدم بعض الكبراء، يتشفعون في يوسف هذا، فقال أبو الربيع لو أمكن أن أنزع السلسلة عن يوسف بمائة دينار لدفعتها عنه وأطلقت سراحه، ولكن الحق أولى، وهكذا لم تشفع محبته لهذا الرجل، ولا رجاء الكبراء فيه، لأن الحق أحق أن يتبع ...

وهو إلى هذه الشدة والحزم في معاقبته الجناة وتتبع العصاة جم التواضع كثير الحياء، أواب إلى الحق.

ذهب هو وبعض أصحابه وطلابه إلى تندَّميرة فاستضافه رجل دخلت الشبهة إلى بعض ماله، فامتنع أحد طلابه عن الأكل تورعا، غضب أبو الربيع غضباً شديداً على هذا التلميذ، ولما كان بالطريق وهو راجع إلى مركز حكمه وإقامته - إيبناين - قال لأبي محمد بن عبدالله التميجاري: مره فليلحق ببيت أبيه - يعنى الطالب الذي تورع عن الأكل ... فقال له أبو محمد: إن لم تأثم أنت فلم يأثم هو، فطاطأ الشيخ رأسه حتى كاد يصل قربوس السرج، واذعن للحق، واستمع إلى النصيحة المخلصة ...

وكان إلى هذه الشدة في دين الله، وهذا التواضع والحياء، وهذا الرجوع إلى الحق، كثير البر، جم الصدقة، متواصل العبادة ؛ وفي رمضان يجمع إليه خيار المسلمين مثل العلامة طاهر بن يوسف وغيره، فيصومون عنده ويتعاونون على مذاكرة العلم ؛ والتعرف

على أحوال المؤمنين، والقيام بأنواع مختلفة من العبادة.

جمع بين الإمارة والقضاء والتدريس، وكان يوزع وقته بين هذه المهام فلا يؤثر قسما منها على القسم الآخر..

إذا صلى العشاء الآخرة وتنفل بما شاء الله، افتتح مجلس الدرس للطلاب إلى هون من الليل، ثم يذهب إلى داره، ويصطحب معه محمدا ابن زكرياء البغطوري ومحمد بن يفون فيقرأ عليه احدهما حتى يفتر، ثم يقرأ الآخر إلى آخر الليل، فيقوم إلى الاشتغال بالصلاة، فإذا صلى الفجر اشتغل بالدراسة حتى تطلع الشمس، فيفتتح مجلس التدريس، فإذا أتم التدريس جلس للقضاء والأحكام إلى الزوال، فيقوم ليشتغل بالصلاة، حتى قال بعض خواصه المتصلون به: " لا ندري متى ينام " ؟

أبو يحيى

زكرياء بن ابراهيم الباروني [62]

علم من أولئك الأعلام الذين يهتدي بهم الضال، ويثبت الحيران، ويلجأ إليهم الضعيف، جمع إلى غزارة العلم، وقوة الإرادة والشدة في دين الله، كرما مطبوعاً، وحيا للخير متأصلا، ورغبة ملحة في نشر العلم، وهداية الناس إلى دين الله السوى، فقد اجتمع في تلك النفس المؤمنة الصادقة كل الصفات والمزايا التى يودعها الخالق في بعض خواص خلقه لأداء رسالة في التاريخ، لا يؤديها كل أحد، وقد تحمل أعباء تلك الرسالة، واستجاب له حتى أولئك الذين شذوا عمن قبله في أغلب المملكة الليبية، ودانت له الدنيا، وأعطى بسطة في العلم والمال 63.

نعم لقد أعطى بسطة في المال حتى استطاع أن يفيض به على جميع الجبل، ولم يبق بيت من " ككلة " إلى " وازن " لم يدخله مال أبي يحيى زكرياء.

فهل تحصل على هذا المال بالطرق التى يعرفها الحكام في التاريخ القديم والحديث ؟: وسائل غير شريفة، وطرق ملتوية، واستغلال نفوذ، ورشاوي وهدايا ... إلى آخر ما هنالك من وسائل الابتزاز التى يعرفها ذوو السلطة المنحرفون عن سبيل الله.

إن أبا يحيى لم يأخذ مليما واحداً عن طريق غير شريف، ولم يرزأ الأمة في قليل ولا كثير، ولم يجد قيد أنملة عن طريق أولئك السلف الذين لم ينحرفوا عن الطريق اللاحب الذي تركه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، ثم سار فيه أبو بكر فعمر، فالصفوة المختارة من عباد الله المؤمنين.

كان أبو يحيى ينفق على الأقسام الداخلية في مدرسته العامرة التى تشتمل على عدد من الطلاب، يتراوح بين الخمسين والمائة طالب، وكان لا يزوره زائر ولا يسمع بأحد ابتلى بضيق الرزق، وأصيب بالحاجة، إلا نفحه من كرمه، وواسى جرحه بماله، وكان الناس إلى مشاهدتهم لهذه الأفعال الكريمة والنفقات الباهظة المتتابعة يعرفون سيرته واستقامته وعفته، فلذلك كانوا يختلفون في طريقه حصول الشيخ على هذه الأموال الوافرة، يقول بعضهم: إنه عثر على كنز جاهلي، ويقول بعض: إن معه الإسم الأعظم، فهو يستطيع أن يرد الحجر ذهبا، ويرى آخرون ؛ إنه عالم في الكيمياء – على حسب ما يظن في الزمن القديم أن الكيميا تستطيع أن تستخرج من النحاس أو غيره من المعادن ذهبا وهاجا – أما أكثر القوم واقعية فقد سأل الشيخ عن مصدر ثروته ؛ فأجابه بالحق الصراح:

لقد قال له: إنه اكتسب هذا المال من التجارة، ولا سيما في أيام الشدة، فهو رجل يعرف كيف يعمل، ويعرف موارد الكسب الحلال، إنه لم يعثر على كنز، وليس معه اسم الأعظم، ولا علم بالكيمياء، ولا شعوذة يستغل بها الأفكار الساذجة.

كان يقوم بمهمة التدريس إلى جانب قيامه بمهام الحكم والفتوى، وكان بمدرسته ما يزيد على ثمانين طالبا، وفي إحدى سنوات الجفاف التى كثيراً ما تصيب ليبيا، بلغت فيها الشدة مبلغاً أثرت على طلابه الذين ينفق عليهم في مدرسته العامرة، وتذاكر الطلاب النجباء هذه الحال، وظنوا أنهم اثقلوا على شيخهم في هذه السنوات العجاف، فقرروا أن يتفرقوا، وأن يلحق كل واحد منهم بأهله وبلده، حتى تنقضى هذه المحنة، وتبدل هذه الحال، ويغدق الله نعمته على العباد..

وسمع الشيخ بما اتفق عليه طلابه، فأمر أن يقدم إليهم الطعام من غير زيت، وحين حضر الطعام، أمر أحد الطلاب أن يأخذ إناء ويحضر الزيت من المخزن، وذهب الطالب النشيط وفي يده وعاء الزيت – وكان في المخزن مجموعة من الأزيار، فكشف عن الأول ليأخذ الزيت ولكنه وجد الزير مملوءاً مالا، وكذلك انتقل إلى الثاني، حتى كشف عن مجموعة منها، ثم خرج إلى زملائه، فقال له الشيخ: أخبر رفاقك عما رأيت، فلما أخبرهم، قال لهم الشيخ: لقد سمعت بما قررتم من الافتراق، وهذا المال الذي أخبركم عنه زميلكم إنما جمع لينفق به على طلاب العلم من هذه المدرسة، ولو ذهبتم أنتم، لأنفق به على غيركم، كما أن بقاءكم هنا لا يثقل علىَّ، ولا يؤثر على حياتي. واطمأن الطلاب إلى ما رأوا وما سمعوا، واستمروا في كفاحهم العلمي.

وكما كان عالما ومؤمناً وكريماً وقوياً في الحق، كان حريصاً على المحافظة على أمته ووطنه، يذود عنها في شجاعة واستبسال. حاول أبو يحى بن إسحاق الميورقي عدة مرات أن يحتل الجبل،

بعد ما احتل أغلب شمال إفريقيا، وخرب ما وصلته يده من عمران، ولكنه رجع في جميع تلك المحاولات بالفشل الذريع، وكل ما استطاع أن يفعل في بعض تلك الهجمات، هو التخريب، وذلك العمل الذي لا يقوم به إلا المتوحشون من الناس. كون مرة جيشاً كبيراً، وقصد مدينة الجبل " جادو" وكان يريد أن يحتلها من مدخلها الطبيعي: من جهة الشمال، هذا المدخل الذي تستلقى عليه في فتنة وجمال مدينة " جناون " الرائعة، فلاقاه الأبطال المغاوير، الذين أعدهم أبو يحيى لمثل هذه المهمة، فرجعت جيوش الميورقي منهزمة، ولكنه رغم هزيمته استطاع أن يوقد النار في تلك الحدائق الغناء التى تسقيها عين " تموقت "الغزيرة،التى تندفع إليها مع شلال "القصب"64لفاتن الجميل.

واحترق في هذه الحدائق ما يزيد عن اثنى عشر ألف شجرة زيتون خاصة، وعدد غير قليل من الأشجار الأخرى، وأصبح مكان تلك الحدائق يسمى بالحاريق، إلى يومنا هذا.

ووجه " الميورقي " حملة أخرى إلى عاصمة جبل نفوسة منذ عصور قديمة، إلى المدينة العظيمة – مدينة " شروس " التى لا تزال آثارها تشهد بعظمة الإسلام في تلك العصور، وتوجه إليها مع مدخلها الشمالي، كما توجه إلى " جادو " وكان يعتقد وهو يندفع بجيوشه وسط هذا المدخل بين الجبال، أن المدينة العظيمة أصبحت بين يديه، ولا سيما وهي تنبسط على السفح، فتصلها الخيل دون عناء، ولكن الابطال المغاوير الذين كانوا يترصدون حركات العدو من المدينة الجاثمة على القمة العالية الشرقية للوادى التى تسمى " الجزيرة " انقضوا في خفة الليوث على هذه

الجيوش، التى بدأت تتعثر بين مسالك الجبل، وامتلأت قلوب هؤلاء المهاجمين بالرعب، فولوا الأدبار، لا يلوون على شئ.

وكم كانت ظريفه تلك الحيلة التى لجأ إليها سكان هذه القرية الضارية في الهواء تطاول النجم وتغازل القمر.

لقد خطر للميُّورقى أن يعاود الكرة، وأن يهجم هذه المرة على هذه القرية التى تسمى الجزيرة، والتى روعت جنده في يوم من الأيام، فيضربها الضربة القاضية، يستطيع من بعدها أن يستمر في حروبه دون خوف، فجهز جيشاً،وجاء به إلى سطح هذا الجبل الذي تقع في قمته الجزيرة الصغيرة الضاحكة، وأطال الحصار، واجتمع شباب القرية يتداولون الأمر، وفكروا في حيلة لعلها تعتبر أبرع حيلة قام بها المحاربون في التاريخ، وفي ليلة شديدة الظلام انفلت جمع من شباب القرية، وأخذوا مجموعة من الجمال وحملوها حطباً، ولما اقتربوا من جيش العدو الهاجع آمنا مطمئنا إلا عددا من الحرس منبثين هنا وهناك، يداعب النوم أجفانهم، ويلوى أعناقهم، وجه أولئك الفتية أعناق الإبل إلى معمعة الجيش، وفي خفة ولباقة أشعلوا النار في الحطب الذي على ظهورها، ثم انفلتوا هاربين وأحست الجمال بالنار تلسع ظهورها، فاندفعت بما يملك من قوة محدثة جلبة ورغاء في ذلك الظلام الحالك، واستيقظ الجيش على هذا الدوي العظيم، والاندفاع العنيف، والنار المشتعلة، فظن القوم أنهم أحيط بهم، واندفع كل واحد مهم إلى سلاحه، يقتل من لاقاه أو أحس به، ويركن إلى الفرار ...

وأصبح الصباح، فإذا بعدد غير قليل من جثث القتلى، وإذا بأموال وسلاح وعتاد خلفه الجيش المنهزم الذي قضى على نفسه بنفسه،وجاء أبو يحيى زكرياء وفتيانه فدفنوا الموتى من الأعداء، اما ما ترك العدو من أموال، فهي لا تحل لهم، ولذلك فقد رأى أكثر المشائخ في ذلك الحين: أنه يجب أن تحرق، وأن لا يتركوا شيئاً من المال الحرام يدخل إلى جبلهم، هذا الجبل الذي لا يزال يحتفظ بطهارة الإسلام.

لست أدري هل استوحى شباب هذه القرية حيلتهم البارعة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، أم أنها خطرت لهم دون أن يرجعوا إلى تاريخ الإسلام الحافل بالعظمة والبراعة والفكرة ...

صمد أبو يحيى زكريا ء الباروني لهجمات الميورقي ولغيرها من الهجمات، ورد بعضها بالعنف ورد بعضها بالحيلة، ورد بعضها بالصلح، إنه حافظ على هذا الوطن العزيز الأبي، فلم تدنسه أقدام البغاة الذين لا يتقيدون بدين ولا خلق ولا ضمير ...

وذهب الميُّورقي إلى ربه بما قدمت يداه، وحفظ التاريخ هذه الأمجاد..

أمجاد الإيمان والشهامة والعفة لهؤلاء الناس الذين وضعت في أيديهم أمانة الله فرعوها حق رعايتها، وأمانة الأمة فحفظوها من أنفسهم، وحفظوها من عدوان المفسدين.

عدالة الإسلام
في سير الحكام

حدثتك أيها القارئ الكريم في الفصول السابقة عما يقرب من ثلاثين بطلا من أبطال الإسلام، من الذين تولوا الحكم في ليبيا، أو في بعض أجزاء ليبيا. ولم أقصد بالحديث عن هؤلاء الأبطال، أن أقص عليك تراجم حياتهم، أو أن أعرفهم لك تعريف المؤرخ الذي يعنى بكل شأن، ولا أن أربط بين تسلسل الأحداث التاريخية، لست أقصد شيئاً من ذلك، لأن هذا الكتاب لم يوضع للتاريخ، وإنما قصدت أن أعرض عليك صوراً من تاريخ الإسلام، في سير أبطاله، تجد فيها العلم والبطولة، وتجد فيها الإيمان والشهامة، وتجد فيها الاستقامة والعفة، وتجد فيها التضحية والإيثار، وتجد فيها صوراً من حياة المسلمين كما كانوا في الصدر الأول، وتجد فيها الوقوف عن حدود الله.

تلك الصور الرائعة التى تمثل العدل المطلق، والمساواة المطلقة بين أبناء الأمة، لا يرتفع فيها شخص إلا بإيمانه، ولا ينحدر فيها إلا بعصيانه.

ولقد كنت أنقل هذه الصور على بساطتها وأنا آمل أن يقرأها اثنان من الأمة: الأول رجل وجد منصبا في الدولة، وكرسيا

للحكم، وأعطى له حق التصرف في شأن من شؤون الشعب، وأملي في هذا الرجل الذي وضعت في عنقه أمانة من أمانات هذه الأمة – سواء كانت صغيرة أو كبيرة، وأملي في هذا الرجل أن يجد في هؤلاء الناس قدوة حسنة، فيتخذ منهم مثلا يحتذيه، ويجعل من سيرتهم منهاجاً يسير عليه.

أما الثاني فرجل يقف في مصاف الشعب العادي، ليس له من الحياة والسلطان أو المال، ما يرفعه في أعين من يزنون الرجال بالمادة، وأملي في هذا الرجل أن يتخذ هو الآخر عبرة، وأن يعرف أن كرامة الإسلام تمنعه أن يرضى الظلم، وأن يسكت عن الانحراف عن جادة الله، وأن الحق يخوله أن يحاسب أولئك الذين يعبثون بمقدراته، وأن الإسلام يجعله في صف واحد مع أكبر ذي سلطة في الدولة، وأعظم ذى ثروة في الأمة، لا يفضلانه بشئ أبداً إلا أن يكون تقوى لله وعملا بدين الله.

وتاريخ صدر الإسلام في زمن النبوة والخلافة الرشيدة ليس فقيراً من أمثال هذه الصور التى أنقلها لك، من تاريخ جانب من جوانب الأمة، في جزء صغير من الوطن الإسلامي الفسيح، ولكن دعاني إلى أخذ هذه الشواهد من غير ذلك العصر الحافل بالمجد والعظمة سبب بسيط، وذلك أنني كثيراً ما أتحدث مع الناس عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجيبني البارعون في النقاش منهم: " ذلك شخص عصمته الرسالة، وأولئك قوم شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستمعوا إلى الوحي وهو ينزل من السماء، فالمسافة بين طبيعة الحياة عندهم وطبيعة الحياة عندنا شديدة البعد.

ولقد يخيل لبعض الناس أن في هذ المنطق ظلا من الحجة، ولكي يذوب هذا المنطق ويضمحل ذلك الظل، أوردت هذه الشواهد التى تنتثر خلال عشرة قرون من تاريخ الإسلام، وبين كثير من ظلم الحياة ومعاكسات الزمن.

وكما استطاع بعض هؤلاء الأبطال أن يسيروا بسيرة الإسلام النقية في أى عصر من عصور التاريخ، يستطيع اليوم أي رجل يتولى شأنا من شؤون الأمة، أن يؤدي أمانتة بإخلاص، فلا يعبث بمالها ولا بوقتها، ولا يستغل جاهه ولا مركزه، إلى آخر ما هنالك مما يجب أن يكون عليه الحاكم القويم الذي يؤمن بشريعة الإسلام، ويتحلى بما دعا إليه من خلق كريم.

وكما يجب أن يكون صاحب الأمر قويا، يجب أن يكون رجل الأمة – أى الفرد العادي – مؤمنا بدينة، مؤمنا بحقه الذي خوله له فاطر السموات والأرض، فلا يرضى المهانة، ولا يسكت على ذلة، ولا يوافق على ما يخالف أمر الله، فإن بدا لصاحب الأمر أن ينحرف، وجب أن يقف له رجل الأمة بالمرصاد، يقوَّم أعوجاجه بالنصيحة والإرشاد، فإن لم يجد النصح قومه بالسيف كما قيل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

إن هؤلاء الأبطال الذين حدثتك عنهم، حكموا ليبيا أو جزءاً من ليبيا، وكان فيهم من بويع بالخلافة، فدان له ما بين " القيروان وسرت "، وكان منهم من كان عاملا لخليفة، وكان منهم من تولى الحكم باختيار أصحاب الرأي والشورى، ولكنه لم يبايع بالخلافة، ولم يكن تابعا لدولة من الدول الأخرى، فهو أمير مستقل، يحكم

أغلب البلاد الليبية أو بعض أجزائها، فهم يتفاوتون تفاوتا عظيما في مدى السلطة المخولة لكل واحد منهم، ولكنهم جميعا يتفقون في شئ واحد ... يتفقون في هذه السيرة العطرة التى يعطي فيها صاحبها أكثر مما يأخذ.

لقد عرف هؤلاء الذين تولوا الحكم في ليبيا من رجال الإباضية، أنه لم يسند إليهم الحكم ليستغلوه لأنفسهم، ولا ليتخذوا منه سلطانا، ولا ليجمعوا به ثروة، ولا ليتعالوا به على الناس الذين أولوهم ثقتهم،ووضعوا بين أيديهم هذه الأمانة الغالية.

وحافظ أولئك الحكام على هذه الثقة، فبذلوا من جهدهم، ومن تفكيرهم، ومن حبهم للمسلمين، ومن وقتهم الثمين، ومن مالهم الخاص الذي اكتسبوه من الأعمال الحرة – قبل أن يشتغلوا بأمور المسلمين أو ورثوه عن الجدود –بذلوا من ذلك كله ما يطلبه الإسلام من المؤمنين الصادقين ؛ ولم يأخذوا من هذه المراكز الهامة يوم انفصلوا عنها بالاستقالة أو الموت غير الذكرى العطرة عند الناس. وعند الله الجزاء الأوفى ...

إنك مهما تتبعت حياتهم فلن تجد لأحد منهم ذلك النعيم الذي يتقلب فيه أصحاب السلطة الظالمون، ولن تجد عندهم هذه الحواشى التى تخون الله والحاكم والأمة، فتقلب الحقائق وتشوه وجه الحق، وتنفخ الكذب والزور في أذن الحاكم ليغتر ويحيد عن سبيل الله، فإذا حاد فقد وجدوا ما يطلبون، وحققوا ما كانوا به يحلمون ...

ولن تجد عندهم القصور الشامخة، والجواري الحسان، إنهم كانوا يعيشون على شظف من العيش كما عاش خير الخلق عليه السلام، وكما عاش خلفأوه الأتقياء من بعده، لا يشبع الواحد منهم في حياته الطويلة وكفاحه المستمر، بالخبز والزيت، وليس ذلك للحاجة والفقر، ولكنه لقوة الإرادة والتغلب على وسوسة الشيطان والهوى..

ولقد يسأل القارئ الكريم عن أسباب هذه الاستقامة التى وجدت في جميع حكام الإباضية تقريباً، لا يشذ عنهم إلا النزر اليسير؟ وللجواب عن ذلك نحيله إلى القواعد التى اعتمدها المذهب الإباضي في قضية الحكم، غير متأثر بعواطف الشيعة، ولا عنصرية الأموية، ولا ربكة الشعوبيين ؛ فالمسلم الإباضي لا يعترف بحق ا لوراثة في الحكم، ولا يصدق بقضية العنصرية، في اختيار الحاكم، ولا يطيع من لا يطيع الله ويقيم حدوده ويحكم بما أنزل ...

ولذلك فهو أولا يختار من يضع بين أيديهم مقدرات الأمة، ويتبني هذا الاختيار على الكفاءة المطلقة، الكفاءة العلمية والكفاءة الدينية، والكفاءة الخلقية، والكفاءة العقلية، ثم هو لا يقرعلى الحكم من ينحرف عن صراط الله المستقيم: الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون، والسلف الصالحون المصلحون.

فكان أولئك الناس الذين يقع عليهم الاختيار لتحمل أعباء الحكم، يجهدون أنفسهم للقيام بالواجب، والمحافظة على

السيرة المرضية، وهم مع هذا الحرص يخشون عذاب الله من التفريط، ويخافون نقد الأمة من التقصير، فإن الحاكم الذي يعجز عن القيام بالمهام التى أسندت إليه – إما ضعفاً عنها، أو انحرافاً عن سبيل الله - يجب عليه أن يتخلى عن هذه المسؤولية التى لم يستطع تحملها، فإذا خطر له أن يستمسك بها على هذا القصور أو التقصير، وجب قتاله وقتله، وإسناد الأمر إلى من هو أهله...

حدثتك إيها القارئ الكريم عن هؤلاء الرجال الذين أسند إليهم الحكم في هذا الوطن الكريم ؛ ولم اخترهم لشرف الحكم كما قد يتبادر إلى ذهن بعض القراء الكرام، فأنا لا أرى في الحكم مظهراً للشرف، ولا مدعاة للفضل، إن الحكم في نظري ينقسم إلى قسمين: -

` أحدهما: هذا المظهر هو أحقر عمل يسعى إليه إنسان يؤمن بدينه، ويؤمن بخلقه، ويؤمن بإنسانيته ... أما أولئك الذين يزدحمون عليه في إصرار فهم حمقى، أعوزتهم العظمة في أنفسهم، فراحوا يلتمسونها في سلطة الحكم، ومهما بلغ أولئك الرجال من العظمة في ظنهم، فهم أحقر من أن ينظر إليهم التاريخ الحق نظرة التقدير والتعظيم، فإن العظمة لن تكون أبداً بمبالغ وافرة من المال، تؤخذ من الشعوب، ولا بأرواح كثيرة تزهق ظلماً وعدواناً، ولا بقهر وجبروت وطغيان مسلط على الضعاف ؛ ولقد وصل الفراعنة إلى ما وصلوا إليه من جمع الثروة واستعمال السلطة، ولكنهم لم يكشفوا بكل ما فعلوه إلا عن أنفس مريضة تتطلب الخلود في دنيا الفناء ....

ولقد انحط الفراعنة إلى أن ادعوا لأنفسهم الألوهية، فزعموا أنهم قادرون على الإماتة والأحياء. وإذا ساغ للعقل الفرعوني أن ينحط إلى هذه الدعوى التى يعرف هو نفسه أنه كاذب فيها، فإن العقل الذي يحترم نفسه بعد هدايات الله المتواليات على طرق انبيائه، وبعد استنارة العقل البشري بما يجد كل يوم من الحقائق، يجب أن يرتفع عن الأوهام والأضاليل ...

على أن العقل الفرعوني السخيف الذي يضفى على نفسه عظمة المظهر لأنه يفتقد في عظمة الحقيقة.. لايزال يحيا في هذا العصر، عصر العلم والمعرفة.. ومن المؤسف أن عدداً غير قليل من هذه الأشكال الجوفاء لا تزال تسيطر على مقدرات الأمة الإسلامية في بعض دولها.

ولست أدري والله ما هي الأعذار التى يلجأ إليها هؤلاء الناس ؟ وهم يؤمنون برسالة محمد، ويتلون كتاب الله، ويدرسون سنة رسوله عليه السلام، ويعرفون سيرة السلف الصالحين.

ما يقول هؤلاء – وهم يحيدون عن النهج القويم الذي سار عليه أمناء هذه الأمة ؟

وما يقولون – وهم يبتزون أموال الأمة – التى جعلهم الله قياماً عليها- بغير حق، ويتصرفون في دمائها بغير عدل، ويفصلون مشاكلها بغير علم ؟ ...

ما يقول هؤلاء الحكام المسلمون ؟ الذين وضعت بين أيديهم مقدرات الأمة، فأراقوا كرامتها في مجالس السكر، وموائد القمار، ودور البغاء الظاهر والبغاة الخفى ؟..

ماذا يقولون حين يأخذون من مرافق الدولة ليضعوا في مرافقهم، ويسرقون من مال الأمة ليضعوا في أموالهم، ويعبثون بمصلحة الأمة لخدمة مصالحهم ؟

ماذا يقول هؤلاء الحكام الذين منحوا الثقة ليحافظوا على أمانة الله، وعلى دين الله، فإذا بهم أول من يحارب أحكام الله، ويعطل حدوده، ويعبث بالأمانة التى بها أسندت إليهم مراكز الحكم ؟

ماذا يقول القائد الذي ينعق فتتبعه مجموعة بشرية من مصاصي الدماء، ثم يهجم على بلد مسلم آمن، فيتلف الأموال، ويزهق الأرواح، لا لشئ إلا ليتمرغ في كراسي الحكم، ويعيث أعوانه في البلاد فساداً ؟ !.

ماذا يقول هؤلاء الذين لا يفتأون يدبرون الانقلابات، لا للاستقرار والتنظيم، واتباع أمر الله ! ولكن للتحكم في الأموال والأرواح، فإذا ما أتيح لأحدهم النجاح، حكم حكم فرعون، فاستذل عباد الله، وسرق مال الله، وسمح لأعوانه بارتكاب الفظائع، وأطلق يده في الانتقام، فقتل الأرواح دون حساب، وسجن الأبرياء دون جريرة ؟

ماذا يقول هؤلاء المرضى، الذين لم يجدوا العظمة في أنفسهم، فراحوا يبحثون عنها في المظاهر ؟ ...

وإنه لحق على الأمة المسلمة في مجموعة وطنها أن تطيح بهؤلاء الخونة الذين، خانوا الله، وخانوا رسوله، فلم يرجعوا إلى دين الله في أعمالهم؛ وأن تحاسبهم حساب الخبير القدير، فلا تمنح كراسيها إلا للأقوياء على اتباع الحق، ولا تضع أموالها إلا بين

أيدي الأمناء على شريعة الله، ولا تحَكَّم في مصيرها إلا المخلصين الذين يبرهنون على إخلاصهم،وأن تجبر هذه الشرائم – التى تنعق في كل ركن من أركانها باسم دولة _ على التخلى عن هذا الاسم، لتصهر هذه الدول الهزيلة المتناطحة في دولة إسلامية قوية، لا ترهب عدواً ولا تتملق أقلية كافرة تعيش في وسطها كما تعيش الجراثيم، وتعمل كما تعمل الطوابير الخامسة في اصطلاح السياسة.

` أما الثاني: فهو هذه التضحية الكاملة التى يقدمها الحاكم للأمة، إنه الشعور بالواجب المقدس الذي يتعالى فيه الشخص عن مكاسبه المادية، ومصلحته الشخصية،وينسى فيه نفسه وماله وأهله، ليقدم للأمة ما يملك من جهد وفكر ووقت. والمؤمن حين يتولى الحكم من هذا السبيل، يجب أن يزيل من ذهنه أول ما يزيل: المتعة والراحة والسلطة والمال. لأنه خادم أمين مخلص، وخادم القوم سيدهم.

فالسعادة التى يملكها حاكم الأمة المسلمة، إنما هي في نفسه لا في مهنته، والسيادة النفسية لا تتنافى مع خدمة الناس، بل لعلها لا تكون سيادة حقاً إلا عندما تتجلى في هذا الجانب من الأعمال المبينة على التضحية ونكران الذات.

ولذلك فما من مؤمن حريص على إيمانه، حريص على كرامته،يسعى إلى أن يلي أمور الناس أو يقبلها إذا عرضت عليه – اللهم إلا في الحالة التي تحتاجه الأمة، ويكون قبوله لهذا الأمر ضرورياً، وفراره منه يؤدي إلى أضرار تلحق بها، فحينئذ يكون

واجباً من الواجبات التى لا يحل له أن يتخلى عنها، وفي تاريخ الأمة الإسلامية أمثلة رائعة من ذلك، فقد قبلها الصّديق رضى الله عنه مكرها، بعد أن حاول أن يفر منها ويضعها على كاهل الفاروق أو أمين الأمة.

وقبلها علي بن أبي طالب مكرها وهو يقول للقوم: لأن أكون وزيراً خيرلكم من أن أكون أميراً. وقبلها أبو الخطاب عبد الأعلى بعد أن خير بينها وبين القتل، وقبلها أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني بعد أن أقنعته العجوز أن إعراضه عنها سيكون سبباً لدخوله النار.

وقد تحمل الصّديق أعباء الإمامة وهو يحاول أن يعمل كأي فرد في السوق، ليعول أفراد أسرته الكبيرة، وبقي الفاروق اثنتى عشر سنة في الخلافة فلم يتجاوز بذخه في الطعام الخبز والزيت، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يكنس بيت المال كل جمعة، وعندما استعارت ابنته حلية من خازن بيت المال تتزين بها لمناسبة عارضة ثم تردها، غضب علىَّ على الخازن وهم بقطع يد ابنته وقال: لولا أنها استعارتها لكانت أول هاشمية تقطع يدها.

وكان عمر بن عبدالعزيز يعيش في زمن الرغد الذي لا يوجد فقير تدفع له الزكاة، ومع ذلك فقد كان يطفئ السراج إذا انتقل الحديث إلى شأن غير شؤون الأمة، مخافة أن يرزأ الأمة في قطرة من الزيت. وتوفى عبدالوهاب بن رستم الذي كان يحكم الجزائر وتونس وليبيا بعد عشرين سنة من الحكم، فأحصيت تركته

فبلغت سبعة عشر ديناراً، وحكم أبو زكرياء ستين سنة، وولد له طفل فلما طلبت منه زوجته النفساء أن يبعث إليها بقليل من الزيت للاستصباح ودهن الطفل، اعتذر بأنه ليس لديه زيت ورجاها أن تستصبح بالحطب، وتغسل الطفل بالماء.

هؤلاء الأبطال، ومن سار بسيرتهم، وانتهج طريقتهم، هم أمراء الإسلام، ولم ينقص من الصّديق أنه كان يعمل في السوق كما يعمل أي فرد آخر من الأمة، ولم ينقص من عظمة الفاروق أنه لم يتجاوز في أكله الخبز والزيت، ولم ينقص من عمر بن عبدالعزيز أنه لم يتخذ عرشاً كما اتخذ بقية ملوك بني أمية،ولم يلغ في أموال الناس ودمائهم،كما ولغ غيره من طلاب الدنيا.

إنني أكتب هذه الكلمة، وأنا ارجو أن يجد فيها القراء الكرام بعض العبرة وبعض القدوة، وأن يدرك أولئك الذين وضعت أمور المسلمين بين أيديهم في مختلف مرافق الحياة أن العظمة إنما تكون في النفس لا في المظهر، وأن متع الحياة مهما كانت مصادرها وشيكة الزوال، وأن يتساموا بأخلاقهم وأعمالهم عن دنس الأنانية، ورجاسة المادية، ووضر الانتهازية والانتفاعية، فإن تلك الأخلاق بقايا من الصفات الحيوانية التى علقت بالإنسان ينميها النظر القصير.

إنه يجب على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين أن يعرف أنه إنما يأخذ مرتباً مقابل أن يدفع للأمة كل طاقاته، بما يملك من علم وقوة وعمل، لا يدخر وسعاً، ولا يبقى جهداً، وأنه ليس له أي

حق في أن يضيف إلى مرتبه الذي جعل أجراً له على جميع قواه، لا يحل له أن يأخذ شيئاً من الأمة بأي وسيلة من الوسائل زيادة على ذلك، وأن أي تقصير في البذل، أو أي زيادة في الأجر – بعد الأجر المقرر – إنما هو خيانة وسرقة.. فإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بمهمته، أو أن يصون يده، فيجب عليه أن يتخلى لمن يستطيع ذلك ...

كفاح الإباضية للظلم في ليبيا

تنقل الكتب، كتب التاريخ، أن الإباضية قاموا بعدة حروب، وعدة ثورات، فيما بين القرن الأول والقرن العاشر الهجري، فلماذا أشعلوا نيران هذه الثورات، وقاموا بتلك الحروب ؟

وفي هذا الفصل أريد أن أعرض على القارئ الكريم أهم تلك الحروب وتلك الثورات، وأعرض عليه أسبابها ونتائجها والغاية منها.

عين عبدالرحمن بن حبيب أخاه إلياس عاملا على طرابلس، فقبض إلياس على عبدالله بن مسعود التجيبي وقتله خوفا من الإباضية، فغضب الإباضية وثاروا لهذا الظلم، فبايعوا الحارث بن تليد إماما، وأخرجوا عمال بني العباس، وكل ما فعلوه أن قتلوا رجلا واحداً مقابل صاحبهم عبدالله التجيبي.

أرسل عبدالرحمن بن حبيب من اغتال الحارث بن تليد وقاضيه عبد الجبار المرادي، فغضب الإباضية لهذه الخيانة، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بالإمامة، وقلبوا نظام الحكم، دون أن يريقوا قطرة دم واحدة، وكل ما فعلوه أن خيروا عامل العباسيين بين البقاء فرداً من الأمة، أو السفر آمنا موفوراً.

تغلبت " ورفجومة " على " القيروان " وقتلت حبيبا بن عبدالرحمن عاملها، وارتكبت من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام، فانتهكت الحرمات، وربطت الدواب بالمساجد، واعتدى المعتدون على النساء في الطرقات، فاستغاث بعض أهاليها بالإمام أبي الخطاب، فجهز جيشاً طهر به مدينة عقبة من عبث العابثين.

ارتكب ولاة الأغالبة ما يبرأ منه الإسلام في ليبيا، فكانوا يأخذون الأموال دون حساب، ويريقون الدماء في إسراف، ويتنقلون بين الأحياء المسلمة الضاربة في المراعي الشاسعة، فينتهكون حرمة الصبايا الحرائر والغيد المصونات، دون رادع من خلق أو دين، وغضب الإباضية من هذه الجرائم وهي ترتكب فيهم، فبايعوا أبا حاتم الملزوزى بالإمامة، فطرد هؤلاء المعتدين، وأزاح عن الأمة ذلك الكابوس الثقيل، ولما تفقد الإمام القتلى بعد انتهاء أول معركة له مع أولئك البغاة الظالمين ؛ وجد بعض القتلى من جيش العدو قد سلبوا، فجمع جيشه ثم قال لهم: إن لم تردوا الأسلاب تركت أمركم، وسارع الناس إلى رد الأسلاب، وأعلنوا التوبة..

إن هذه الحرب لم تشرع للغنيمة، وإنما شرعت دفاعا عن النفس والعرض والمال..

ارتكب الولاة الظالمون في القيروان من الإرهاب والقتل وأخذ الأموال ما يستفز الحليم، فاستغاث بعض أهلها بأبي حاتم، فجاءهم وحاصر القيروان مدة تزيد عن السنة، وحينما دخلها بعد الحصار الطويل أمن الجميع، أما الجنود المرتزقة الذين كان يجمعهم الأغالبة من كل مكان ليعيثوا بهم في الأرض فساداً،

فقد أطلق أبو حاتم سراحهم، ليرجعوا إلى أهليهم، وزود كل خمسة منهم بعصا وموسى وقربة ماء، وأعطى لكل واحد منهم رغيفا من الخبز ؛ وهذا الموقف لم أسمع بمثيل له في تاريخ البشرية.

هاجم العباسيون أئمة الإباضية عدة مرات من الشرق، فلم يرد أولئك الأئمة عن دفاعهم في الميدان، وكلما انتصر الإباضية وقفت أعمالهم الحربية عند انتهاء المعركة، وكلما انتصر المهاجمون المعتدون ارتكبوا من الفواحش ما تقشعر منه الأبدان، فلم يسلم منهم مال ولا عرض، ولم ينج منهم فار ولا مسالم،ثم تعدوا ذلك إلى المثلة بالقتلى، فاحتزوا الرؤوس، وبعثوا بها إلى القاهرة أو بغداد.

كان للأغالبة جند وافر من المرتزقة الذين لا دين لهم ولا ضمير وهم خليط من شذاذ العرب والبربر وغيرهم، وكانوا تعودوا النهب والسلب والغنائم في حروبهم، وعندما تطول مدة السلام يسأمون، لأن السلام لا يزيد في ثروتهم الحرام، فخرجت شرذمة منهم إلى الأحياء الضاربة حول طرابلس، وارتكبوا ما تعودوا أن يرتكبوه، فاستغاث المظلومون بالإمام عبدالوهاب الرستمي، وكان حينئذ مقيما في " ميري " إحدى قرى بني زمُّور " الرجبان اليوم " فجهز جيشاً وحاصر طرابلس حتى لان عمال الأغالبة للحصار، وعقدوا مع عبدالوهاب صلحاً بأن تكون طرابلس المدينة والبحر للأغالبة، وأن يكون ما عدا ذلك تابعاً للإمام عبدالوهاب.

سرق ابن طولون أموال الدولة من خزانة أبيه، وكون جيشاً من

مواليه، واتجه إلى المغرب، فمر ببرقة، وجاء إلى طرابلس، وارتكب من الفواحش ما يبرأ منه الإسلام، فاستغاث الناس من ظلمه بأبي منصور إلياس ؛ على أنه لم يكتف بما ارتكب، فبعث رسالة إلى أبي منصور يأمره فيها بتقديم الطاعة، ويهدده إذا هو لم يسارع بذلك، بأن يوطئ الخيل بلاده ويستبيح حرمه.

وجهز أبو منصور جيشاً، والتقى مع هذا الفتى المغرور في قصر حاتم، وانهزم المعتدون، وطار ابن طولون على فرس سابق، تاركا وراءه عدداً من القتلى وثمانمائة حمل من الذهب منتثرة في الميدان، فلم يأخذ منها أبو منصور وجيشه ديناراً واحداً يحتفظون به للذكرى، أو يضعونه في دار الآثار، وترك المال لمن يسعى إلى جمع المال، ورجع شهماً شريفاً، كما جاء شهماً شريفاً.

قرر إبراهيم بن الأغلب القائد المجنون الذي – لا يتورع عن أكل الرؤوس الآدمية أن يمر بالأراضي الليبية ليغزو مصر، وتوقع الناس المصائب التى تنجر عن مرور هذا المجنون، والجراد الذي يقوده، فاعترضه الإباضية بقيادة أفلح بن العباس في قصر " مانو " وحاولوا رده عن المرور بأراضيهم، ووقعت بينهم حرب طاحنة انتصر فيها الطاغية المجنون.

سعى خلف النكارى أن يستقل بجبل نفوسه، فلم يتمكن من ذلك، فجهز جيشاً وهجم به على أبي عبيدة عبدالحميد في مركز حكمه بجادو، وانتصر أبو عبيدة، فلم يزد أن منع جنده من أخذ الغنائم والإجهاز على الجرحى واتباع المدبرين.

بعد وفاة أبي عبيدة تولى الإمارة على ليبيا " ماعد المدينة "

العباس بن أيوب، وفكر خلف النكارى أن يعيد الكرة، فجهز جيشاً وهجم به على العباس، فانتصر العباس أيضا،ولم يزد على أن أخرج العدو من الحوزة أو من حدود المملكة، لم يحتز رأساً، أو يغنم مالا، أو يجهز على جريح، أو ينتقم من برئ إنها سيرة أسلافه المؤمنين، لا يحيد عنها.

وقعت بعد ذلك عدة حروب لا تزيد عن غارات توجه إلى جبل نفوسه الذي حافظ على استقلاله، غالباً مايكون القصد منها الاستيلاء على ما أمكن من الأموال. فكان أولئك الأبطال يردون تلك الغارات، ويصمدون لتلك الحروب، فينتصرون، وحينئذ لا يجد منهم أعداؤهم أي سوء بعد انتهاء المعركة، وقد ينهزمون فيجدون من أعدائهم كل عنف.

هذه أهم الحروب والوقائع التى قام بها الإباضية في ليبيا، وهي في جملتها وتفصيلها كفاح ضد عدوان يرتكبه عمال ظالمون لملوك ظالمين. ولو رجعت إلى هذه المعارك واحدة واحدة لو وجدت أن الإباضية لم يشهروا سيفاً إلا دفاعاً عن نفس بريئة تقتل، أو حرمة مصونة تنتهك، وأنهم في جميع هذه المواقف التى دافعوا فيها الظلم، وردوا العدوان لم يبدأوا أحد بقتال، ولم يرتكبوا شيئاً مما يخالف سيرة العدول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فما حفظ التاريخ عنهم أنهم غنموا مالا، أو خانوا عهداً، أو أراقوا قطرة دم بعد أن تنتهي المعركة، وترجع السيوف إلى أغمادها، أو اتبعوا مدبراً، أو أجهزوا على جريح، أو احتزوا رأساً من الرؤوس التى بغت عليهم فظفروا بها، أو هتكوا حرمة لمسلم، رغم ما يرتكبه فيهم محاربوهم من طغيان وتجاوز

لأحكام الإسلام.

ولعل الحرب الوحيدة التى بدأوا بها وأعلنوا فيها القتال قبل أن يبدأهم أحد، هي الحملة التى وجهها أبو الخطاب عبد الأعلى إلى القيروان، ولكن الظروف التى حملت أبا الخطاب على هذه الحرب جديرة أن تحمل كل قلب ينبض بالإيمان أن يقوم، وأن تحرك كل سيف يدافع عن دين الله أن ينطلق إليها. فقد أحتلت " ورفجومةُ " القيروان بعد أن قتلت حبيب بن عبدالرحمن ابن حبيب، وليس هذا بالسبب الذي يحمل الإباضية على محاربتهم، ولكن ربط الدواب في المساجد، وارتكاب الفواحش علناً في الشوارع، واصطياد الحرائر أمام أعين الناس واغتصابها.

أعمال لا يقوم بها حتى المتوحشون من أعداء الله. فكيف بقوم ينتسبون إلى الإسلام ؟ فلما بلغت هذه المناكر التى تقع في مدينة وضع حجرها الأساسى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يصبر أبو الخطاب عن دفع هذا المنكر، وتطهير المدينة الصحابية من هذا الرجس ...

تلك هي الحقائق التاريخية للأحداث الحربية التى قام بها الإباضية في ليبيا.

وتلك هي الأسباب والغايات التى دعتهم إلى القيام. فما هو الموقف الذي ينتقده عليهم الدين، أو الشرف، أو المروءة ؟ وفي أي حركة من هذه الحركات يصح ما يقوله بعض المؤرخين المعاصرين من أن الإباضية يبحثون عن الفتنة، وما واتتهم فرصة للثورة إلا ثاروا ؟ !

إن الإباضيــة أبغــض الأمة لإراقــة الدماء، وأبعــد الناس عن أن يكونوا ســبباً في إشــتعال حرب، وحينما يضطــرون إلى ذلك بســبب العدوان الصارخ الذي يســلطه الجبابــرة، لا يزيدون عن رد هذا العدوان بأيســر سبيل، وبأقل ما يمكن من الأذى، وهم في كل ذلــك ينظرون إلى هــؤلاء المعتدين بنظرة الأخ إلــى أخيه المخطئ، يحــاول أن يــرد أذاه دون أن يلحق به أذى، وراجع أيهــا القارئ الكريم كتب التاريخ المطولة عن مواقف الإباضية ضد المعتدين عليهم، إقرأ ذلك حتى عند أشــد الناس بغضا لهم، مثل الأســتاذ الزاوي، فإنــك إذا تأملت حقائق التاريــخ وأحداثه وجدت فيه الصورة التى رســمتها لك، ولم يســتطع الأســتاذ الزاوي – مــع حرصه على تنقص هــؤلاء القوم – على أن يزيد عن كلمات ســباب يطلقها عليهم فيرميهم مرة بالبحث عــن الفتنة، ومرة بالتماس الثورة، وقد يرميهم دون خوف من الله بالمنافقين 65.

قــال لي أحد الإخــوان وهو يطالــع فصلا من فصــول الحلقة الأولــى من هذا الكتاب: إنك تدافع عن الإباضية في حرارة. فقلت له إن موقفي هو موقف الإباضية في جميع أدوار تاريخهم، إنهم لــم يبدأوا يوماً بالعدوان، ســواء كان ذلك في الميدان العســكري أو فــي الميدان العلمي. ولكنهم فــي أكثر الأحيان يقفون موقف الدفاع المشــروع الذي تدعوا إليه عزة الإسلام وكرامة الإنسانية، وليس ذلــك الدفاع خاصاً بالميادين العســكرية، فــإن طريقتهم فــي الدفــاع واحــدة ؛ لا بغــي ولا عــدوان، ولا ســلطان للغضب على نفوســهم وألســنتهم. وهم في دفاعهــم العلمي عندما يــردون العــدوان على الفكرة، أو العــدوان على المبــدأ، أو العدوان

علــى العقيدة، لا يتجاوزون فــي دفاعهم الحــدود للنقاش النزيه، والاعتماد على الأحــداث الواضحة من التاريــخ والبراهين البينة من الكتاب والسنة وسيرة السلف، أو الحجة الظاهرة من المنطق المعقــول، ثم هم في كل ذلــك لا يضيعون الفرصة على الخصم، ولا يغلقون في وجهه الأبواب، ولا يقيمون دون آراء غيرهم الحواجز، ولعــل علماء الإباضية بلغوا في إنصــاف المخالفين لهم درجة لم يبلغها علماء أي طائفة أخرى، سواء كانت دينية أو فكرية، والذي يطالــع أي كتاب من كتب الإباضية المطولة، لا ينتهي من قراءته حتــى يعــرف إلى جانــب آراء الإباضيــة آراء غيرهم مــن المذاهب الإســلامية، ويعرف الأقوال الراجحة عند الإباضية وعند غيرهم من المذاهب الإســلامية الأخرى، وليس ذلك في مقام الرد، بل في مقام البحث والتفصيل، وبســط المسائل وشرحها، واستخلاص آراء العلمــاء ونظرياتهم، وبينما يقف أغلب علماء الفرق الأخرى مــن الإباضية موقف المتحفز المســتوفز، المنكر لوجودهم، الجاحد لتراثهم الفكري القيم، يعاملهم الإباضية بكل تسامح وإنشراح صدر، إن الموقف العلمي بين الإباضية وغيرهم شــبيه كل الشبه بالموقف العسكري: تفهم وتسامح واحترام آراء، وتعامل إسلامي من جانب: وعدوان وجحود وإنكار من الجوانب الأخرى. ولســت أدري أى السبيلين أقرب إلى الخلق الكريم وأدنى إلى الحق، وأهدى منهجاً ومسلكا ؟!!!

ولعل الله ييسر لى السبيل للعمل، فأضع صورة للمقارنة بين الموقفين في بعض فصول هذا الكتاب.

كلمة الختام

اللهم إليك وحدك أرفع عملي.

وإليك وحدك أتجه بدعائي.

فلا تكلني إلينفسي فأهلك.

وأحفظني من الزلل.

وسدد خطاي. وألهمني رشدي.

وأغنني برحمتك عن خلقك يا أرحم الراحمين.